

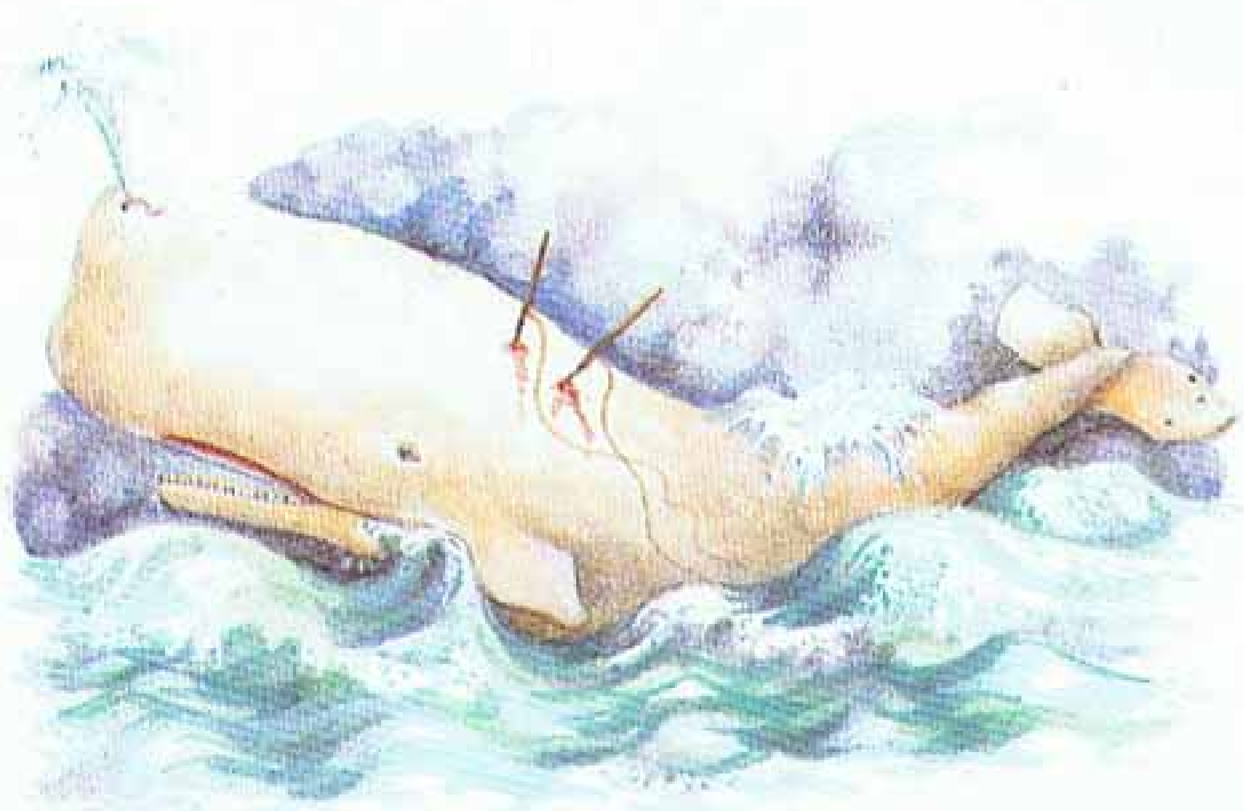
كتب الفراشة - القِصص العالميّة

موبي دِك



كتب الفراشة - القِصص العالميّة

مُوبي دِك



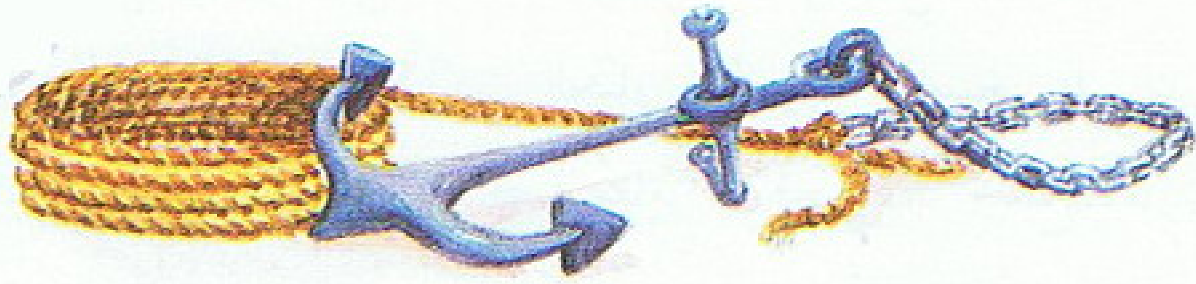
أعادَ حِكايتها: الدّكتور ألبير مُطْلَق
عَن قصّة هِرمَن مِلْفِل



مَكتبَة لبْنان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٤
رقم الكتاب 01 C 196804
طبع في لبنان



مقدّمة

«**موبي دِك**» (Moby Dick) هي أَشْهَرُ أَعْمالِ الرِّوائِيِّ الأَميرِكِيِّ هيرمَنْ مَلْفِل، وإحْدى رَوائِعِ الأَدَبِ الأَميرِكِيِّ.

عاشَ مَلْفِل بَيْنَ العامَيْنِ ۱۸۱۹ و۱۸۹۱، وكَتَبَ رِوايَةَ «**موبي دِك**» بَيْنَ العامَيْنِ ۱۸۵۰ و۱۸۵۱ عِنْدَما كانَ في الحادِيَةِ والثَّلاثينَ مِنْ عُمْرِهِ. وهٰذِهِ الرِّوايَةُ عَمَلٌ ضَخْمٌ يَضُمُّ ۱۳۵ فَصْلًا، فَبِالإِضافَةِ إلى أَحْداثِ القِصَّةِ المُثيرَةِ الَّتي سَتُطالِعُها في هٰذا الكِتابِ، تَحْوي الرِّوايَةُ فُصولًا هِيَ عِبارَةٌ عَنْ سَرْدٍ تَفْصيلِيٍّ واقِعِيٍّ يُظْهِرُ مَعْرِفَةَ مَلْفِل الوَثيقَةَ بِالبَحْرِ والبَحّارَةِ وخِبْرَتَهُ في مَيْدانِ صَيْدِ الحيتانِ. فَخَلْفِيَّةُ هٰذِهِ الرِّوايَةِ مَبْنِيَّةٌ على خِبْرَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ خِلالَ سَنَواتِ عَمَلِهِ في المُحيطِ الأَطْلَسِيِّ وجَنوبِ المُحيطِ الهادي.

صَحيحٌ أَنَّ رِوايَةَ «موبي دِك» تَتَمَتَّعُ اليَوْمَ بِشُهْرَةٍ عالَمِيَّةٍ واسِعَةٍ، ولٰكِنَّها لَمْ تَلْقَ نَجاحًا يُذْكَرُ عِنْدَما نُشِرَتْ سَنَةَ ۱۸۵۱، لِأَنَّ جُمْهورَ القُرّاءِ لَمْ يَكُنْ مُعْتادًا على هٰذا النَّوْعِ مِنَ القَصَصِ الَّذي يَمْزُجُ الأَحْداثَ القَصَصِيَّةَ بِالوَقائِعِ الحَيَّةِ. ولٰكِنْ، بَعْدَ خَمْسينَ سَنَةً، تَبَوَّأَتِ الرِّوايَةُ مَرْكَزَها الأَدَبِيَّ المَرْموقَ.

تَمْتازُ «**موبي دِك**» بِصِفاتٍ عَديدَةٍ تُؤَهِّلُها لِهٰذِهِ المَكانَةِ: هُناكَ، **أَوَّلًا**، الحَبْكَةُ الَّتي تَتَطَوَّرُ فيها الأَحْداثُ بِشَكْلٍ مَتينٍ يُؤَدّي إلى الخاتِمَةِ الرَّهيبَةِ. ثُمَّ هُناكَ الشَّخْصِيّاتُ الحَيَّةُ

المُتَنَوِّعَةُ المُيولِ والأَهْواءِ، وكُلُّها نَماذِجُ إِنْسانِيَّةٌ مُقْنِعَةٌ في رِقَّتِها وقَسْوَتِها، في غَرابَتِها وشَجاعَتِها، في هَوَسِها وعِنادِها... ولَعَلَّ القُبْطانَ «أهاب» هُوَ أَبْرَزُ هٰذِهِ الشَّخْصِيّاتِ، فَقَدِ اسْتَطاعَ أَنْ يَحْمِلَ البَحّارَةَ عَلى مُواصَلَةِ الرِّحْلَةِ مَعَهُ وتَحَمُّلِ الأَخْطارِ المُميتَةِ بِفَضْلِ عَزْمِهِ الأَكيدِ عَلى مُلاحَقَةِ الحُوتِ الأَبْيَضِ الجَبّارِ وتَصْميمِهِ الرّاسِخِ عَلى الثَّأْرِ مِنْهُ. هٰذا المَوْقِفُ الثّابِتُ يُخْرِجُ الرِّوايَةَ مِنْ كَوْنِها قِصَّةَ مُغامَراتٍ فَحَسْبُ، ويُتيحُ لِلقارِئِ اكْتِشافَ شَيْءٍ عَنِ الجانِبِ الشِّرِّيرِ لَدى البَشَرِ، الَّذي يُؤَدّي إِلى الهَلاكِ والدَّمارِ. وقَدْ كانَ مَلْفِل نَفْسُهُ مِنْ أَصْحابِ الرَّأْيِ القائِلِ إِنَّ البَشَرَ يَجْمَعونَ في نُفوسِهِمْ خَليطًا عَجيبًا مِنَ القُوى الخَيِّرَةِ والقُوى الشِّرِّيرَةِ، وإِنَّ هَوَسَهُمْ قَدْ يَقودُهُمْ أَحْيانًا إِلى الشَّرِّ والدَّمارِ.

وأَهَمُّ ما يَبْرُزُ لَنا في هٰذِهِ الرِّوايَةِ، أَنَّ هيرمَنْ مَلْفِل قِمَّةٌ مِنْ قِمَمِ الفَنِّ القَصَصِيِّ، فَهُوَ يَشُدُّ القارِئَ بِأُسْلوبِهِ الآسِرِ ونَظْرَتِهِ الإِنْسانِيَّةِ الواقِعِيَّةِ. إِنَّها رِوايَةٌ مُحْكَمَةُ السَّبْكِ عَميقَةُ الإِيْحاءِ تُزاوِجُ بَيْنَ دِقَّةِ الواقِعِيَّةِ وخِصْبِ الخَيالِ.



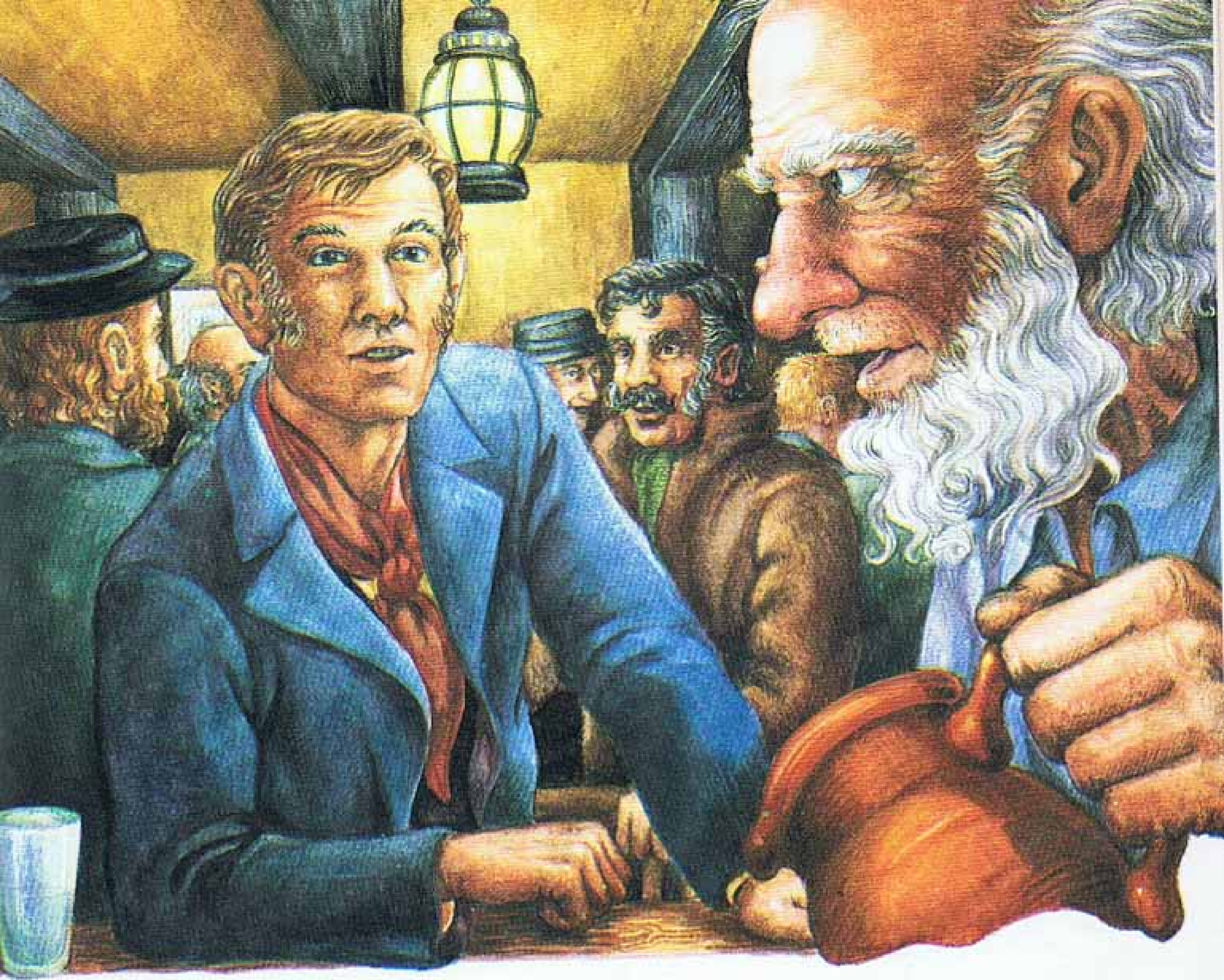


موبي دِك

اِسْمي إسْماعيلُ. مُنْذُ بِضْعِ سَنَواتٍ، وكُنْتُ خالِيَ الوِفاضِ ولا أجِدُ في حَياةِ البَرِّ ما يَشُدُّني إلَيْها، عَزَمْتُ على أنْ أطْلُبَ عَمَلًا في البَحْرِ يُتيحُ لي شَيْئًا مِنَ الكَسْبِ ويُرْضي مَيْلي إلى المُغامَرَةِ. ولَطالَما فَعَلْتُ ذٰلِكَ مِنْ قَبْلُ، فعِنْدَما أكونُ تَعيسًا يَشُدُّني البَحْرُ إلَيْهِ وأجِدُ فيهِ مَلاذي. ومَتى خَبَرَ المَرْءُ البَحْرَ مَرَّةً صَعُبَ عَلَيْهِ مُقاوَمَةُ رَغْبَةٍ قاهِرَةٍ في العَوْدَةِ إلَيْهِ.

اِعْتَدْتُ، عِنْدَ رُكوبِيَ البَحْرَ، أنْ أعْمَلَ بَحّارًا في سَفينَةٍ تِجارِيَّةٍ. لٰكِنّي هٰذِهِ المَرَّةَ، لِسَبَبٍ لا أجِدُ لَهُ تَفْسيرًا، عَزَمْتُ على أنْ أطْلُبَ عَمَلًا في سَفينَةٍ لِصَيْدِ الحيتانِ.

والطَّريقَةُ المُثْلى لِلشُّروعِ في مِثْلِ هٰذا العَمَلِ تَكونُ في الذَّهابِ إلى نانْتُكِت. وهٰكَذا وَجَدْتُ نَفْسي في لَيْلَةٍ ظَلْماءَ عاصِفَةٍ خارِجَ نُزُلٍ صَغيرٍ في نْيوبِدْفورْد، البَلْدَةِ الصَّغيرَةِ الواقِعَةِ في الطَّريقِ إلى نانْتُكِت.



كُنْتُ أَبْحَثُ عن مَكانٍ أنامُ فيهِ، ولَمّا لَمْ أَكُنْ أَمْلِكُ إلّا القَليلَ مِنَ المالِ فقَدْ كانَ مَطْلَبي مُتَواضِعًا. كانَ النُّزُلُ قَديمًا، لٰكِنَّ الجَوَّ داخِلَهُ كانَ دافِئًا ووِدِّيًّا. فَمَشَيْتُ إلى صاحِبِ النُّزُلِ واسْتَفْسَرْتُ عن غُرْفَةٍ خالِيَةٍ، فأَجابَني أنَّ الغُرَفَ كُلَّها مَشْغولَةٌ.

ثُمَّ قالَ: «انْتَظِرْ! إذا لَمْ تَكُنْ تُمانِعُ في مُشارَكَةِ زَرّاقِ حيتانٍ سَريرَهُ فإنّي أَجِدُ لَكَ مَكانًا تَنامُ فيهِ بِضْعَ لَيالٍ.»

وحَمَلَني البَرْدُ القارِسُ في الخارِجِ على أنْ أتَّخِذَ قرارًا سَريعًا، فقُلْتُ: «إذا كانَ الزَّرّاقُ نَظيفًا مُهَذَّبًا فلا مانِعَ عِنْدي.»

كُنْتُ مُتَهَيِّبًا مِنَ النَّوْمِ في سَريرٍ واحِدٍ مَعَ رَجُلٍ ما رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ قطُّ. وعِنْدَما أخْبَرَني صاحِبُ النُّزُلِ، فيما بَعْدُ، أنَّ الرَّجُلَ خَرَجَ يَبيعُ رُؤوسًا آدَمِيَّةً مُحَنَّطَةً وأنَّهُ لا يَأْكُلُ إلّا اللَّحْمَ النَّيْءَ أصابَني الهَلَعُ، وعَزَمْتُ على ألّا أذْهَبَ إلى سَريري إلّا بَعْدَ أنْ يَسْبِقَني هو إلى النَّوْمِ.

لٰكِنَّ اللَّيْلَ انْتَصَفَ ولَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ الرَّجُلُ الغامِضُ قد عادَ، فَمَشَيْتُ مُتَهَيِّبًا إلى صاحِبِ النُّزُلِ وسَأَلْتُهُ أنْ يُرْشِدَني إلى غُرْفَتي. وكانَتِ الغُرْفَةُ صَغيرَةً بارِدَةً، تَضُمُّ سَريرًا واسِعًا يَكْفي في الواقِعِ لِأرْبَعَةِ أشْخاصٍ. تَنَهَّدْتُ تَنَهُّدَةَ ارْتِياحٍ ولَبِسْتُ ثَوْبَ نَوْمي، وسَرْعانَ ما غَرِقْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ.

اِسْتَيْقَظْتُ بَعْدَ ساعاتٍ مُجْفِلًا على صَوْتِ خُطُواتٍ ثَقيلَةٍ. أحْسَسْتُ بِتَهَيُّبٍ، وقُلْتُ في نَفْسي: «هٰذا هو!» ثُمَّ جَمَدْتُ في سَريري لا أجْرُؤُ على النُّطْقِ بِكَلِمَةٍ. فقَدْ رَأَيْتُ وَجْهَ الرَّجُلِ وهو يَدورُ في الغُرْفَةِ. ويا لَهُ من وَجْهٍ مُرْعِبٍ! وَجْهٍ أرْجُوانِيٍّ داكِنٍ طُلِيَ بمُرَبَّعاتٍ سَوْداءَ وصَفْراءَ! خَلَعَ الرَّجُلُ قُبَّعَتَهُ فكادَتْ تَنطَلِقُ مِنّي صَرْخَةُ ذُعْرٍ. لقد كانَ رَأْسُهُ حَليقًا إلّا من ذُؤابَةٍ من شَعْرٍ مَجْدولٍ. ثُمَّ شَرَعَ يَلْبَسُ ثِيابَ نَوْمِهِ فَرَأَيْتُ جَسَدَهُ كُلَّهُ مُغَطًّى بذٰلِكَ الطِّلاءِ القَبيحِ. بَعْدَ ذٰلِكَ أشْعَلَ غَلْيونًا وراحَ يَنْفُخُ فيهِ بقُوَّةٍ عَظيمَةٍ مُطْلِقًا سُحُبًا مِنَ الدُّخانِ.

وما هي إلّا دَقيقَةٌ حَتّى كانَ قد أطْفَأَ القِنْديلَ وقَفَزَ إلى السَّريرِ، وغَلْيونُهُ لا يَزالُ بَيْنَ أسْنانِهِ. وفاجَأَتْني قَفْزَتُهُ فصَدَرَتْ عَنّي صَيْحَةٌ.

صاحَ الرَّجُلُ آمِرًا، وقَدِ اسْتَدارَ اسْتِدارَةً سَريعَةً وأَمْسَكَ بِرُسْغي: «مَنْ أَنْتَ؟ أَجِبْ وإِلّا قَتَلْتُكَ!»

صِحْتُ مَذْعورًا: «يا صاحِبَ النُّزُلِ! النَّجْدَةَ! يا صاحِبَ النُّزُلِ، خَلِّصْني!»

رَفَعَ رَفيقُ السَّريرِ يَدَهُ في وَجْهي وكَرَّرَ في صَوْتٍ صارِخٍ: «تَكَلَّمْ! قُلْ لي مَنْ أَنْتَ، وإِلّا قَتَلْتُكَ!»

وساعَدَني الحَظُّ في أَنّ صاحِبَ النُّزُلِ سَمِعَ اسْتِغاثَتي فأَسْرَعَ إِلَيَّ. وعِنْدَما رَآنا نَحْنُ الاثْنَيْنِ أَغْرَقَ في الضَّحِكِ.

قالَ: «لا تَخَفْ. كوكوغ لن يُؤْذِيَ شَعْرَةً من شَعَراتِ رَأْسِكَ.»

فصَرَخْتُ غاضِبًا: «كُفَّ عَنِ الضَّحِكِ! لِمَ لَمْ تُخْبِرْني بِشَكْلِ هٰذا الزَّرّاقِ؟»

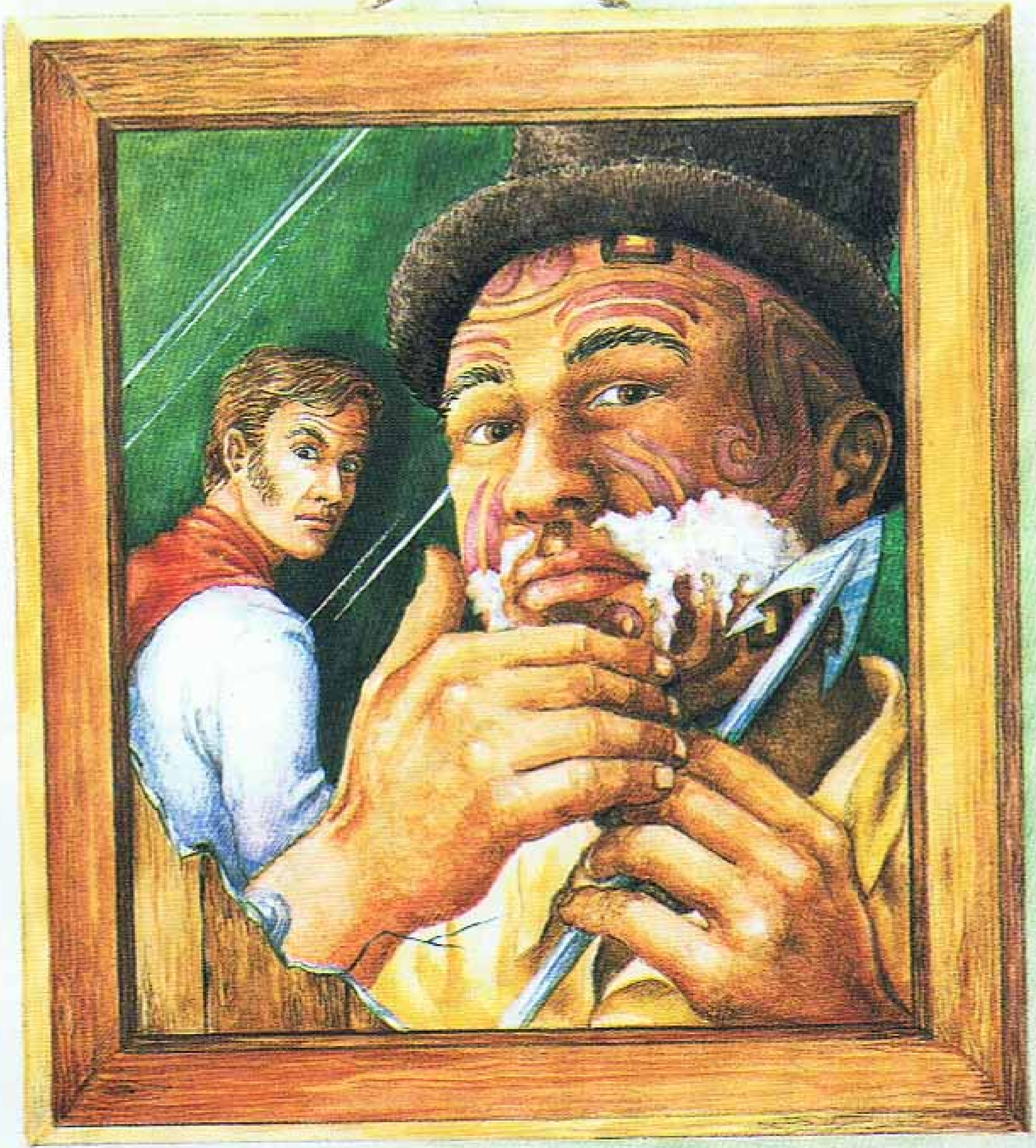
«ظَنَنْتُكَ عَرَفْتَ ما يَنْتَظِرُكَ؛ أَلَمْ أُخْبِرْكَ أَنَّهُ في البَلْدَةِ يَبيعُ رُؤوسًا؟ لٰكِنْ لا تَخَفْ، وعُدْ إِلى نَوْمِكَ.» ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى رَفيقي وقالَ: «يا كوكوغ، هٰذا الرَّجُلُ سَيُشارِكُكَ السَّريرَ. فَهِمْتَ؟»

أَجابَ كوكوغ: «نَعَمْ.» وأَفْسَحَ لي مَكانًا بِلُطْفٍ بالِغٍ وأَدَبٍ جَمٍّ.

قُلْتُ في نَفْسي: «أَثَرْتُ ضَجَّةً لا مُبَرِّرَ لَها. لا داعِيَ لِلفَزَعِ، فَهٰذا الرَّجُلُ لا يَقِلُّ عَنّي تَمَدُّنًا.»

قُلْتُ: «تُصْبِحُ على خَيْرٍ، يا صاحِبَ النُّزُلِ. اِذْهَبِ الآنَ، فأَنا بِخَيْرٍ.» واسْتَدَرْتُ ونِمْتُ نَوْمًا عَميقًا.





اِسْتَيْقَظْتُ صَباحًا عاجِزًا عَنِ الحَرَكَةِ. فقَدْ كانَ كُوِكْوغ، وهو نائِمٌ، يَلُفُّ ذِراعَهُ حَوْلي بقُوَّةٍ. واسْتَيْقَظَ بَعْدَ حينٍ، فَفَرَكَ عَيْنَيْهِ ونَظَرَ إلَيَّ نِظْرَةَ مُرْتَبِكٍ، ثُمَّ انْتَفَضَ وقَفَزَ مِنَ السَّريرِ.

قالَ لي، وهو يُكْثِرُ مِن استِخْدامِ يَدَيْهِ في التَّعْبيرِ، إنَّهُ سيَرْتَدي ثِيابَهُ قَبْلي ثُمَّ يَتْرُكُ الغُرْفَةَ لي. فشَكَرْتُهُ على تَصَرُّفِهِ اللائِقِ.

رَأَيْتُ كُوكْوغ يَلْبَسُ ثِيابَهُ بطَريقَةٍ غَريبَةٍ جِدًّا. فقَدْ لَبِسَ أوَّلًا قُبَّعَتَهُ، ثُمَّ انْدَسَّ في الفِراشِ، ليَلْبِسَ حِذاءَهُ. ثُمَّ غَسَلَ صَدْرَهُ وذِراعَيْهِ في طَسْتِ ماءٍ. ثُمَّ حَلَقَ ذَقْنَهُ بِسِنانِ مِزْراقِهِ. وسَرْعانَ ما كانَ جاهِزًا فلَبِسَ مِعْطَفَهُ، ومَشى برأْسٍ مَرْفوعٍ، حامِلًا مَعَهُ مِزْراقَهُ.

تَناوَلْتُ فُطوري وتَجَوَّلْتُ في مِنْطَقَةِ الميناءِ. وعُدْتُ مَساءً إلى النُّزُلِ فوَجَدْتُ كُوكْوغ جالِسًا أمامَ النّارِ. تَحَدَّثْتُ مَعَهُ، ففَهِمْتُ منهُ أنَّهُ من جَزيرَةِ كوكوقوكو، وهي جَزيرَةٌ نائِيَةٌ لَيْسَ لَها مَوْقِعٌ على أيٍّ مِنَ الخَرائِطِ المَعْروفَةِ؛ لقد كانَ أبوهُ مَلِكَ الجَزيرَةِ، وكانَ هو الأميرَ. لكِنَّهُ كانَ يَتوقُ إلى رُؤْيَةِ العالَمِ قَبْلَ أنْ يَتَوَلّى المُلْكَ بَعْدَ أبيهِ، فعَمِلَ بَحّارًا في سَفينَةٍ لصَيْدِ الحيتانِ. وسَرْعانَ ما أتْقَنَ عَمَلَهُ وأصْبَحَ زَرّاقًا ماهِرًا. وقَدْ ذَكَرْتُ لَهُ أنّي أبْحَثُ عَنْ عَمَلٍ في سَفينَةٍ لصَيْدِ الحيتانِ، فاقْتَرَحَ أنْ نَطْلُبَ الرِّزْقَ مَعًا ونَعْمَلَ على سَفينَةٍ واحِدَةٍ.

لَمْ أتَرَدَّدْ في قَبولِ عَرْضِهِ، فَقَدْ كانَ وَدودًا حَسَنَ التَّصَرُّفِ، وكانَ بالإضافَةِ إلى ذلِكَ، قادِرًا على أنْ يُعَلِّمَني الكَثيرَ.

وفي اليَوْمِ التّالي، تَرَكْنا أنا وكُوكْوغ النُّزُلَ، وأبْحَرْنا إلى جَزيرَةِ نانْتُكِت.

وَصَلْنا نانْتُكِت لَيْلًا. وكانَ صاحِبُ النُّزُلِ الّذي تَرَكْناهُ قَدِ امْتَدَحَ لَنا نُزُلَ أَخيهِ في نانْتُكِت، وقَدْ وَجَدْنا فيهِ فِعْلًا تَرْحابًا وتَكْريمًا.

خَرَجْتُ في اليَوْمِ التّالي أَبْحَثُ عن عَمَلٍ لي ولِكْوِكْوغ. وأَوْصَلَتْني اسْتِفْساراتي آخِرَ الأَمْرِ إلى سَفينَةِ صَيْدِ حيتانٍ قَديمةٍ باليَةٍ، اسْمُها پكْود. كانَ سَطْحُها خَشِنًا مُتآكِلًا لِتَقادُمِ الزَّمَنِ عَلَيْها، وكانَتْ ذِراعُ التَّوْجيهِ طَويلَةً تُشْبِهُ في شَكْلِها عَظْمَ فَكِّ عَدُوِّها التَّقْليدِيِّ - الحوت.

وقَدْ قابَلَني ضابِطٌ في السَّفينَةِ واسْتَخْدَمَنا، أنا وكْوِكْوغ، بَحّارَيْنِ في رِحْلَةِ الصَّيْدِ المُقْبِلَةِ الّتي تَبْدَأُ في خِلالِ أيّامٍ وتَسْتَغْرِقُ نَحْوَ ثَلاثِ سَنَوات.



ثُمَ طَلَبْتُ مُقابَلَةَ القُبْطانِ، لٰكِنّي تَلَقَّيْتُ مِنَ الضَابِطِ جوابًا غَريبًا:

«القُبْطانُ أهاب لَيْسَ على ما يُرامُ. إنَهُ يَلْتَزِمُ بَيْتَهُ لِعِلَّةٍ، لٰكِنَهُ، مَعَ ذٰلِكَ، لا يَبْدو عليلًا. إنَ القُبْطانَ أهاب رَجُلٌ غَريبُ الأطْوارِ، لا يُكْثِرُ مِنَ الكَلامِ، لٰكِنَهُ إذا تَكَلَّمَ، على الآخرينَ أنْ يُصْغوا. أُحَذِّرُكَ، فأهاب فَوْقَ البَشَرِ العاديِّينَ. لقد قَضَمَ حوتٌ شَيْطانِيٌّ ساقَهُ في إحْدى رِحْلاتِ الصَّيْدِ. وبَعْدَ تِلْكَ الحادِثَةِ الّتي وَقَعَتْ مُنْذُ زَمَنٍ، أَصْبَحَ القُبْطانُ رَجُلًا شَرِسًا يَخْشى النّاسُ إغْضابَهُ أيًّا كانَتِ الأسْبابُ.»

تَرَكْتُ السَّفينَةَ وإنْذارُ الضّابِطِ يَتَرَدَّدُ في أُذُنَيَّ. وعُدْتُ من فَوْري إلى كُوِكْوغ أُبَشِّرُهُ بالعُثورِ على سَفينَةٍ تَسْتَخْدِمُنا، فالعُثورُ على عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ أمْرًا هَيِّنًا.

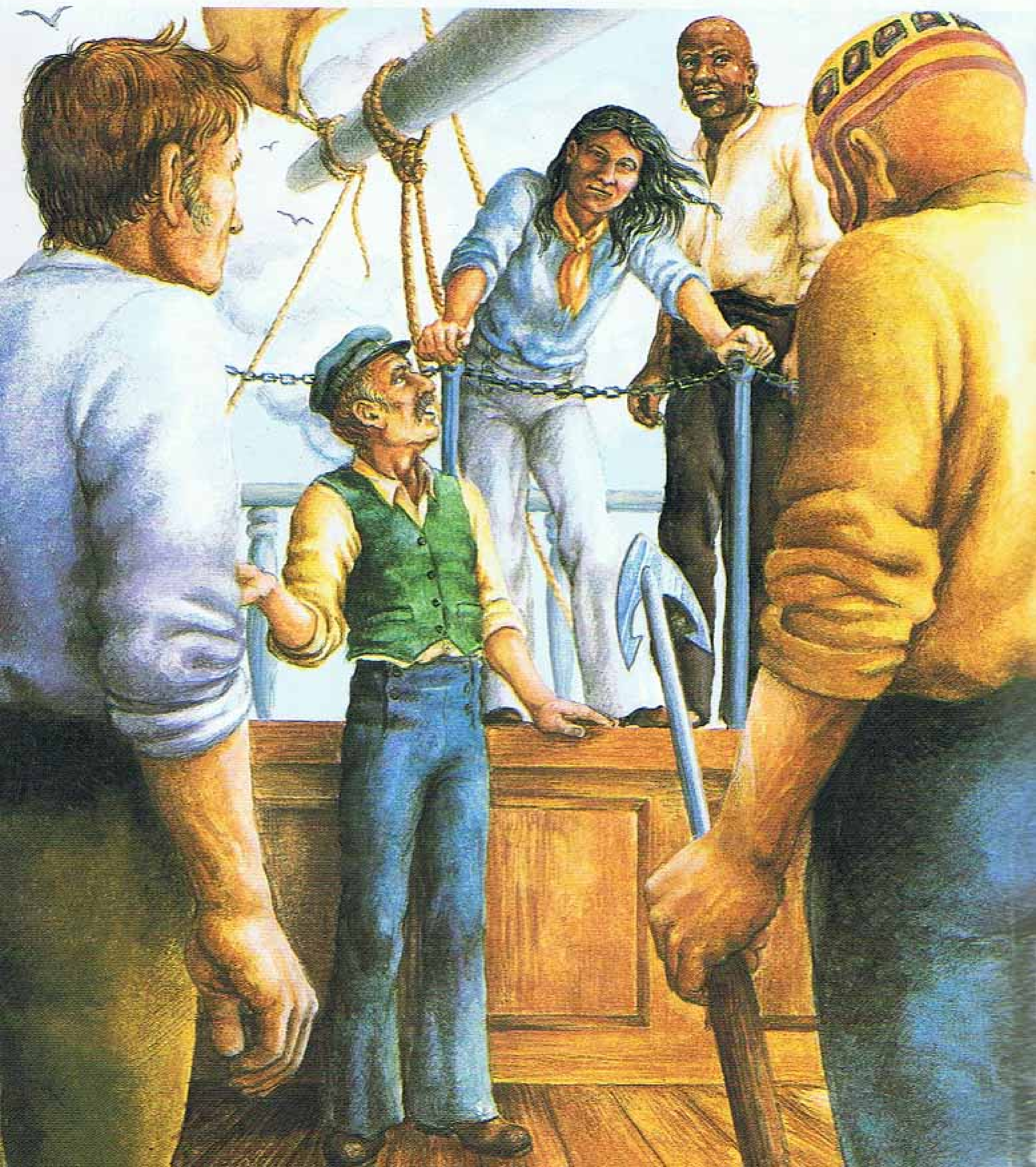
وقَدْ زُرْنا أنا وكُوِكْوغ السَّفينَةَ مَرّاتٍ في أثْناءِ إعْدادِها لسَفْرَتِها الطَّويلَةِ، لٰكِنَ عُيونَنا لَمْ تَقَعْ على القُبْطانِ قَطُّ.

على أنّا قابَلْنا الضّابِطَ الأوّلَ، واسْمُهُ سْتارْبَك. وكانَ رَجُلًا جادًّا، هادِئًا ثابِتَ العَزيمَةِ. وقَدْ تَرَكَتْ صِفاتُهُ وَقْعَها على مَنْ حَوْلَهُ، وسَرْعانَ ما أدْرَكْنا أنَ أمامَنا رَجُلًا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ ويُطاعُ.

ولقد أعْلَمَ سْتارْبَك كُلَّ مَنْ يُهِمُّهُ الأمْرُ أنَهُ يُبْحِرُ ليَعيشَ من قَتْلِ الحيتانِ لا لتَعيشَ الحيتانُ من قَتْلِهِ. وشَعَرْنا بالاطْمِئْنانِ، فإنّا كُنّا نَعْلَمُ أنَ المِئاتِ من صَيّادي الحيتانِ البَواسِلِ أوْقَعَهُمْ تَهَوُّرُهُمْ فَريسَةً للحيتانِ القاتِلَةِ.

كذٰلِكَ التَقَيْنا الزَّرّاقَيْنِ الآخَرَيْنِ اللَّذَيْنِ اسْتُخْدِما، أَحَدُهُما زُنْجِيٌّ اسْمُهُ داغو، والآخَرُ هِنْدِيٌّ أحْمَرُ اسْمُهُ طاشْطَغو. ورَأَيْتُ أنَ بَيْنَ البَحّارَةِ والضُّبّاطِ مَوَدَّةً، فتَبَدَّدَتِ المَخاوِفُ الّتي كانَتْ عَلِقَتْ في ذِهْني عَنِ القُبْطانِ، مَعَ أنّي لَمْ أكُنْ قد رَأَيْتُهُ حَتّى ذٰلِكَ الوَقْتِ.

أَحْسَسْتُ في ذٰلِكَ الوَقْتِ أنّ رَغْبَتي في رُكوبِ البَحْرِ صائِبَةٌ، وأنّ البَحْرَ، بِما فيه من سِحْرٍ وغُموضٍ، سيُرْضي مَيْلي إلى المُغامَرَةِ. وشَعَرْتُ بأسَفٍ على الوَقْتِ الّذي ضَيَّعْتُهُ في حَياةٍ رَتيبَةٍ على اليابِسَةِ. وتَذَكَّرْتُ ما يَقولُهُ البَحّارَةُ الأَصيلونَ إنّ مَنْ يُجَرِّبُ حَياةَ البَحْرِ يَوْمًا لا يَقْبَلُ، بَعْدَ ذٰلِكَ، بَديلًا عَنْها.





بَعْدَ يَوْمَيْنِ ، وفي صَباحٍ مُكْفَهِرٍّ قاتِمٍ ، أَبْحَرْنا من ميناء نانْتُكِت ، وعِنْدَها رَأَيْتُ القُبْطانَ أهاب لأَوَّلِ مَرَّةٍ. لقد كانَ الضّابِطُ على حَقٍّ ، فالقُبْطانُ أهاب ذو هَيْئَةٍ شَرِسَةٍ ، يَحْمِلُ في أَحَدِ جانِبَيْ وَجْهِهِ أَثَرَ جُرْحٍ أَبْيَضَ طَويلٍ ، ويَظَلُّ واقِفًا عِنْدَ مِنَصَّتِهِ وحيدًا مُتَجَهِّمًا صامِتًا. وكانَ قَدِ اسْتَبْدَلَ بساقِهِ الَّتي خَسِرَها ساقًا اصْطِناعِيَّةً أَشْبَهَ بعَظْمَةِ حوتٍ لَمّاعَةٍ ، يُثَبِّتُها في تَجْويفٍ احْتُفِرَ خِصّيصًا لِيُساعِدَهُ على الوُقوفِ بثَباتٍ. ولا يُرى إلّا واقِفًا هُناكَ يُحَدِّقُ في البَحْرِ ، حَتّى في الأَجْواءِ العاصِفَةِ.

ومَعَ الأيّامِ تَحَسَّنَ الطَّقسُ، وشقَّتْ پكْوِد طَريقَها وَسَطَ المُحيطِ تَحْتَ أشِعَّةِ الشَّمْسِ السّاطِعَةِ.

كانَ في جُمْلَةِ واجِباتِنا أنْ نَقِفَ فَوْقَ صَواري المَرْكَبِ ونُراقِبَ البَحْرَ بَحْثًا عَنِ الحيتانِ. ومَعَ اهْتِزازِ السَّفينَةِ يَميلُ المَرْءُ في الطَّقْسِ الحارِّ إلى الاسْتِسْلامِ إلى حالَةٍ مِنَ الاسْتِرْخاءِ. وهٰذا خَيْرُ ما في حَياةِ صَيْدِ الحيتانِ. في البَحْرِ لا يَسْمَعُ المَرْءُ أخْبارًا ولا يَقْرَأُ صُحُفًا ولا يَعْرِفُ بِمَتاعِبِ الأوْطانِ.

وأُقِرُّ أنّي كُنْتُ مُراقِبًا فاشِلًا، كَثيرًا ما أسْتَسْلِمُ لِدَغْدَغَةِ البَحْرِ فأسْتَغْرِقُ في الأحْلامِ، وأعْزِلُ نَفْسي عن رِفاقي البَحّارَةِ وعَنِ العالَمِ بِأسْرِهِ.

بَدا القُبْطانُ أهاب ذاتَ يَوْمٍ أشَدَّ تَأمُّلًا وتَجَهُّمًا من عادَتِهِ، وفَجْأةً اسْتَدْعى سْتارْبَك وأمَرَهُ أنْ يَجْمَعَ الرِّجالَ.

صاحَ الضّابِطُ بالكَشّافَةِ قائِلًا: «يا رِجالَ الصَّواري، انْزِلوا.»

وحينَ اكْتَمَلَ الجَمْعُ، رَفَعَ القُبْطانُ أمامَنا قِطْعَةَ نَقْدٍ ذَهَبِيَّةً وقالَ: «اِسْمَعوا، إنَّ مَنْ يَرى حوتًا أبْيَضَ الرَّأْسِ، ذا فَكٍّ مُعْوَجٍّ وثَلاثَةِ فُتَحٍ في إحْدى زَعانِفِهِ، يَحْصُلُ على هٰذِهِ القِطْعَةِ الذَّهَبِيَّةِ.»

تَبادَلَ طاشْطَغو وداغو وكُوكْوِغ النَّظَراتِ، وكأنَّما أثارَ ذِكْرُ الحوتِ في نُفوسِهِمْ ذِكْرَياتٍ.

قالَ طاشْطَغو: «أيُّها القُبْطانُ أهاب، لا بُدَّ أنَّ ذٰلِكَ الحوتَ الأبْيَضَ هو عَيْنُهُ الَّذي يُسَمّونَهُ موبي دِك.»

اِحْتَقَنَ وَجْهُ القُبْطانِ انْفِعالًا، وارْتَعَشَتْ شَفَتاهُ كأنّما أرادَ أنْ يَقولَ شَيْئًا. لٰكِنّه لم يَنْطِقْ بِحَرْفٍ.

عادَ طاشْطَغو يَقولُ: «أيُّها القُبْطانُ، الحوتُ الأبْيَضُ، أهُوَ موبي دِك؟»



صاحَ أهاب: «موبي دِك! يا وَيْلَكَ يا موبي دِك! لقد أخَذَ الحوتُ المَلْعونُ ساقِي، وتَرَكَني كما تَرَوْنَ. نَعَمْ، سأُطارِدُهُ حَوْلَ رَأْسِ الرَّجاءِ الصّالِحِ، ورَأْسِ هورْن، وحَوْلَ العالَمِ كُلِّهِ إلى أنْ يَقَعَ في قَبْضَتي، إلى أنْ يَتَفَجَّرَ منهُ دَمٌ أَسْوَدُ، ويَنْقَلِبَ ظَهْرًا لبَطْن، وَقَدِ اتَّجَهَتْ زَعانِفُهُ صَوْبَ السَّماءِ. ما قَوْلُكُمْ يا رِجالُ؟ أأَنْتُمْ مَعي؟ إنّي أتَوَسَّمُ فيكُمُ الشَّجاعَةَ.»

اِقْتَرَبْنا مِنَ الرَّجُلِ المُتَحَمِّس، وصَرَخْنا في صَوْتٍ واحِدٍ: «نَعَمْ، نَحْنُ مَعَكَ. إنّ لَنا عُيونًا ثاقِبَةً تُراقِبُ موبي دِك وأَسِنَّةً حادَّةً لقَتْلِهِ!»

صاحَ سْتارْبَك فَجْأَةً: «هٰذا جُنونٌ! الانْتِقامُ من وَحْشٍ غَيْرِ عاقِلٍ جَرَحَكَ من خَوْفٍ! طَلَبُ الانْتِقامِ، يا قُبْطانُ أهاب، أمْرٌ لا تُقِرُّهُ الأَدْيانُ!»

قالَ أهاب: «هُراءٌ، يا رَجُلُ. أنا أكْرَهُ ذٰلِكَ الحوتَ المَلْعونَ، وسأَنْتَقِمُ منهُ. تعالَوا يا أَوْلادُ نَحْتَفِلُ بتَصْميمِنا، ونَلْعَنُ الوَحْشَ.»

تَحَلَّقْنا حَوْلَ القُبْطانِ بحَماسَةٍ نَهْتِفُ ونَلْعَنُ. ولَمْ يَبْقَ مِنّا خارِجَ الحَلْقَةِ إلّا سْتارْبَك. وقَدْ بَدا عَلَيْهِ كأنّما أُصيبَ بصَدْمَةٍ، وهَمَسَ مَذْعورًا: «لِيَحْفَظْنا اللهُ جَميعًا!»

لَمْ نُبالِ بِسْتارْبَك. فَقَدْ أثارَ أهاب حَماسَتَنا إثارَةً جُنونِيَّةً. وكُنْتُ أنا، إسْماعيلُ، واحِدًا من أُولٰئِكَ الرِّجالِ المُتَحَمِّسينَ. لَعَنْتُ مَعَ مَنْ لَعَنَ، وهَتَفْتُ



لأهاب مَعَ الهاتِفينَ. وأقْسَمْنا كُلُّنا على الانْتِقامِ من موبي دِك؛ لقد غَدا انْتِقامُ أهاب الآنَ انْتِقامَنا.

كانَ موبي دِك حوتًا أبْيَضَ ضَخْمًا ذا رَأْسٍ غَريبٍ وظَهْرٍ مُحَدَّب. وقَدْ خافَهُ النّاسُ لحَجْمِهِ الضَّخْمِ وحِيَلِهِ الجَهَنَّمِيَّةِ. فاقَ بحِيَلِهِ ودَهائِهِ كُلَّ مَنْ تَصَدّى لَهُ من صَيّادي الحيتانِ. وقَتَلَ كَثيرينَ مِنَ الرِّجالِ الأَشِدّاءِ المُتَحَمِّسينَ، حَماسَةَ رِجالِ سَفينَتِنا، حَتّى غَدا في قُوَّتِهِ وبَراعَتِهِ أُسْطورَةً.

كانَ هٰذا هو إذًا المَخْلوقَ المُرْعِبَ الّذي أقْسَمْنا على قَتْلِهِ! لقد فَقَدَ القُبْطانُ أهاب في مُصارَعَتِهِ ثَلاثَ سُفُن، وقَدْ قَذَفَ بهِ الحوتُ مَرَّةً في الهَواءِ وقَضَمَ إحْدى ساقَيْهِ بفَكَّيْهِ الهائِلَيْنِ. وبَدا أنّ القُبْطانَ. مُنْذُ ذٰلِكَ الحينِ قد رَكِبَهُ الجُنونُ، ولَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ إلّا بمَوْتِ هٰذا الحوتِ. لَمْ يَدُرْ في خَلَدِهِ ولا للَحْظَةٍ واحِدَةٍ أنّهُ على الرَّغْمِ من صِحَّةِ أساليبِهِ، فإنّ هَدَفَهُ جُنونِيٌّ.

ها هُنا رَجُلٌ عَجوزٌ أَشْيَبُ، كأنّما هو واقِعٌ تَحْتَ تأْثيرِ لَعْنَةٍ مُرْعِبَةٍ، ومَحْكومٌ عليهِ أنْ يُطارِدَ حوتًا في بِحارِ الدُّنْيا على رَأْسِ بَحّارَةٍ مَهْووسينَ. إنّ ما ذَهَبَ بعُقولِنا أمْرٌ لا أسْتَطيعُ، أنا إسماعيلُ، له تَفْسيرًا. أعْلَمُ فَقَطْ أنّي شَعَرْتُ، مِثْلَما شَعَروا، بحَماسَةٍ واسْتِعْدادٍ لخَوْضِ المَعْرَكَةِ مَعَ ذٰلِكَ العَدُوِّ الغَريبِ.



مَضَيْنا في إبْحارِنا أسابيعَ، لٰكِنْ لَمْ نَلْمَحْ حيتانًا. وكانَ البَحّارَةُ يَمْزَحونَ ويَسْتَعِدّونَ للمَعْرَكَةِ الآتِيَةِ. كُنّا، أنا وكُوكْوغ، كَثيرًا ما نَتَحَدَّثُ عن حَياتِنا في البَحْرِ. كانَ كُوكْوغ فَخورًا أنَّهُ زَرّاقُ السَّيِّدِ ستارْبَك. فلقد أُلْحِقَ طاشْطَغو بالسَّيِّدِ سْطَب، الضّابِطِ الثّاني، وأُلْحِقَ داغو بالسَّيِّدِ فْلاش، الضّابِطِ الثّالِثِ.

ولَمّا كانَ أَمْرُ تَوْزيعِ البَحّارَةِ على الزَّوارِقِ الطَّويلَةِ الثَّلاثَةِ قد تَقَرَّرَ، فلَمْ يَعُدْ أمامَنا ما نَفْعَلُهُ غَيْرُ الانْتِظارِ، ومُراقَبَةُ مِياهِ المُحيطِ. وبَدا المُحيطُ، ونَحْنُ نَنْتَظِرُ حوتًا يَشُقُّ بخَطْمِهِ الماءَ ليَتَنَفَّسَ، كأنَّما لا نِهايَةَ لَهُ.

أَخْبَرْتُ كُوكْوغ ذاتَ يَوْمٍ أنّي سَمِعْتُ من داخِلِ السَّفينَةِ أَصْواتًا غَريبَةً. تَطَلَّعَ إليَّ كُوكْوغ وقالَ: «أنا سَمِعْتُ الأَصْواتَ أيْضًا، وسَمِعَها أيْضًا كَثيرونَ غَيْرُنا. لَمْ أَتَبَيَّنْ تِلْكَ الأَصْواتَ، والأَمْرُ غامِضٌ ومُحَيِّرٌ.» ثُمَّ أشارَ إلى زَوْرَقِ صَيْدٍ إضافِيٍّ مَرْبوطٍ بالسَّفينَةِ، وقالَ: «البَحّارَةُ يُسَمّونَهُ زَوْرَقَ القُبْطانِ. لا يَعْلَمُ أَحَدٌ سَبَبَ وُجودِهِ هُناكَ. فلَيْسَ للقُبْطانِ عادَةً زَوْرَقٌ خاصٌّ به، وعَمَلُهُ لَيْسَ مُهاجَمَةَ الحيتانِ.»

تَوالَتِ الأَيّامُ الهادِئَةُ، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ. ومَعَ تَواليها أَخَذَ الجُنونُ الّذي تَمَلَّكَنا مِنْ قَبْلُ يَنْأى عَنّا حَتّى بَدا لَنا بَعيدًا جِدًّا. ولَمْ نَعُدْ نَرى القُبْطانَ أهاب أَبَدًا، وشاعَ أنَّهُ يَقْضي أَيّامَهُ داخِلَ السَّفينَةِ في دِراسَةِ الخَرائِطِ وأَنْماطِ المَدِّ والجَزْرِ، مُحاوِلًا أنْ يَعْرِفَ الأَماكِنَ الّتي تَطْرُقُها الحيتانُ طَلَبًا للغِذاءِ.

وفي يَوْمٍ غائِمٍ سَمِعْنا فَجْأَةً صَرْخَةً آتِيَةً من فَوْقِ الصَّواري. كانَ ذٰلِكَ طاشْطَغو، وكانَ يَميلُ بِجِسْمِهِ إلى الأَمامِ ويَصْرُخُ بحَماسَةٍ: «ها هِيَ تَنْفُثُ! هُناكَ! هُناكَ!»

وكانَ الجَوابُ: «أَيْنَ؟»

«هُناكَ... على بُعْدِ نَحْوِ ميلَيْنِ. قَطيعٌ مِنَ الحيتانِ.»

بَدَّدَتْ صَرْخَةُ طاشْطَغو الطُّمَأْنينَةَ الّتي كانَتِ السَّفينَةُ ناعِمَةً بها. فقَدْ هَبَّ كُلُّ رَجُلٍ إلى عَمَلِه، وأُعِدَّتْ زَوارِقُ المُطارَدَةِ الثَّلاثَةُ للإنْزالِ، وقَفَزَ إلَيْها أطْقُمُ بَحّارَتِها.

ثُمَّ تَعالَتْ فَجْأَةً صَيْحَةُ انْدِهاشٍ، وعَلِقَتْ عُيونُ الجَميعِ بالقُبْطانِ أهاب، وقَدْ رَأَوْا إلى جانِبِه خَمْسَةَ أشْخاصٍ سُمْرٍ. وَقَفْنا وقَدْ تَمَلَّكَتْنا الدَّهْشَةُ نُراقِبُ القُبْطانَ ورِجالَهُ الخَمْسَةَ يَنْدَفِعونَ إلى الزَّوْرَقِ الإضافِيِّ، وسَمِعْنا القُبْطانَ يَصْرُخُ بصَوْتٍ هادِرٍ: «أأَنْتُمْ جاهِزونَ، يا فَيْضَ اللهِ؟»

وجاءَ الجَوابُ: «نَحْنُ جاهِزونَ.» وكانَ المُتَكَلِّمُ الّذي بَدا زَعيمًا لجَماعَتِهِ رَجُلًا أشْيَبَ ذا هَيْئَةٍ غَريبَةٍ. ثِيابُهُ كُلُّها سَوْداءُ وبَشَرَتُهُ صَفْراءُ. وقَدْ عَلِمْنا فيما بَعْدُ أنَّ أهاب اسْتَخْدَمَ تِلْكَ الجَماعَةَ لتَقودَنا إلى موبي دِك، لاعْتِقادِهِ أنَّ لفَيْضِ اللهِ بَصيرَةً نافِذَةً وقُدْرَةً على تَحَرّي المَجْهولِ.

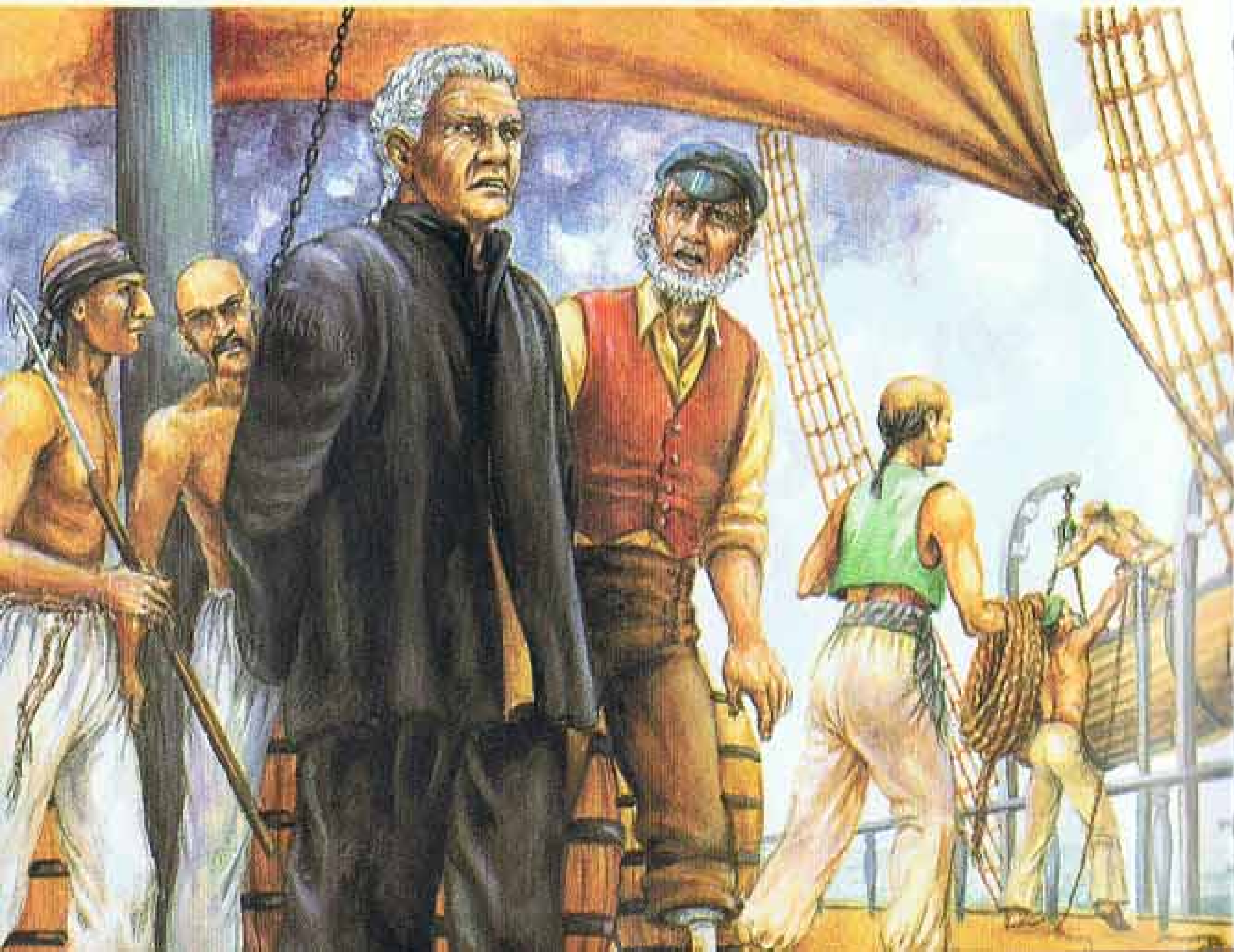


صاحَ القُبْطانُ آمِرًا: «أنْزِلوا الزَّوارِقَ. أتَسْمَعونَ؟ انْطَلِقوا بها.»

فَعَلْنا ما أُمِرْنا به، لٰكِنَّ ظُهورَ الغُرَباءِ بَيْنَنا أدْخَلَ الخَوْفَ في قُلوبِ البَحّارَةِ.

وبَيْنَما بَدَأَتِ الزَّوارِقُ الثَّلاثَةُ في الانْطِلاقِ كانَ الزَّوْرَقُ الإضافِيُّ، وعلى مَتْنِهِ القُبْطانُ أهاب وبَحّارَتُهُ الغامِضونَ، يُدَلّى إلى البَحْرِ. وهُناكَ تَراءى لَنا مَشْهَدٌ مُدْهِشٌ لَنْ أنْساهُ ما حَيِيتُ: أرْبَعَةُ زَوارِقَ تَحْمِلُ رِجالًا بَواسِلَ، تَشُقُّ عُبابَ البَحْرِ، وتَتَحَدّى الأمْواجَ. وكُنْتُ أنا مُجَذِّفًا في الزَّوْرَقِ الّذي يَقودُهُ السَّيِّدُ سْتارْبَك.

صاحَ: «جَذِّفوا بقُوَّةٍ، يا رِجالُ. العاصِفَةُ آتِيَةٌ، لٰكِنّا سَنَقْهَرُها، ونَقْتُلُ حوتًا ونَعودُ به، قَبْلَ أنْ تَصِلَ إلَيْنا.»



كانَ كوكوغ يَقِفُ في مُقَدِّمَةِ الزَّوْرَقِ وقَدْ رَفَعَ مِزْراقَهُ اسْتِعْدادًا للضَّرْبِ.

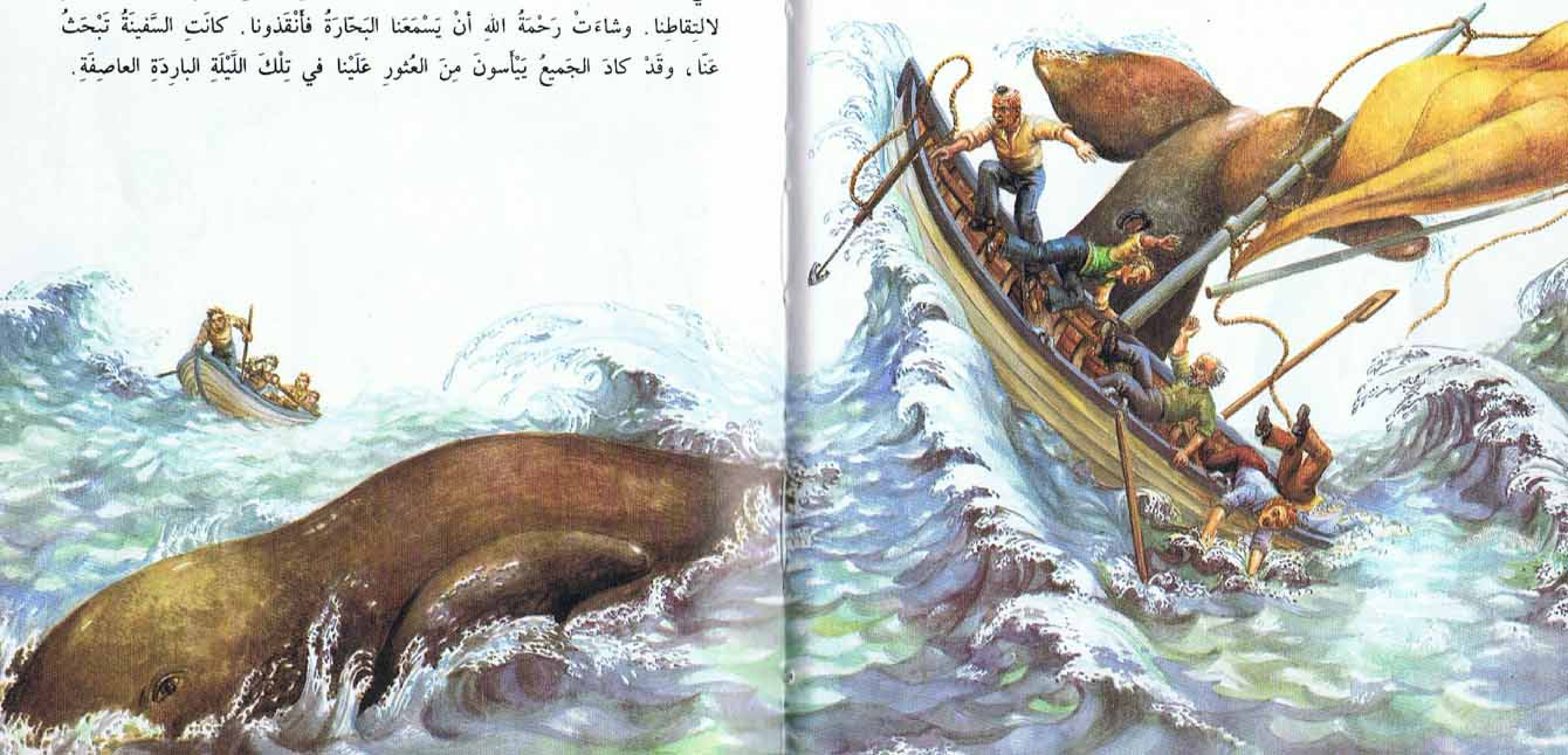
فَجْأَةً صاحَ السَّيِّدُ سْتارْبَك: «هُناكَ! اضْرِبِ الآنَ!»

تَصَلَّبَتْ عَضَلاتُ كوكوغ وقَدْ تَهَيَّأَ للرَّمْيِ. ثُمَّ قَذَفَ بالمِزْراقِ بكُلِّ ما أوتِيَ جَسَدُهُ القَوِيُّ من عَزْمٍ. فطارَ المِزْراقُ في خَطٍّ مُسْتَقيمٍ كما يَطيرُ السَّهْمُ، مُحْدِثًا فَحيحًا قَصيرًا. ثُمَّ بَدا كأنَّ زَوْرَقَنا قَدِ اصْطَدَمَ باليابِسَةِ، وأَحْسَسْنا بشَيْءٍ يَتَمَوَّجُ ويَتَقَلَّبُ تَحْتَنا، ثُمَّ رَأَيْنا أنفُسَنا نَطيرُ كُلُّنا في الهَواءِ ونَقَعُ في المِياهِ الصّاخِبَةِ المُزْبِدَةِ.

لقد نَجا الحوتُ، تارِكًا إيّانا مَذْهولينَ حائِرينَ وَسَطَ البَحْرِ العاصِفِ. وتَمَكَّنّا من إنْقاذِ المَجاذيفِ، وتَسَلَّقْنا الزَّوْرَقَ الّذي كانَ الآنَ مُثْقَلًا بما تَسَرَّبَ إلَيْهِ من ماءٍ. وكانَ الظَّلامُ قد بَدَأَ بالهُبوطِ، وبَقينا في الزَّوْرَقِ نَرْتَعِشُ، بَيْنَما راحَتِ المِياهُ تَرْتَفِعُ حَتّى بَلَغَتْ رُكَبَنا.

بَعْدَ حينٍ، بَرَزَ لَنا في الظَّلامِ ظِلٌّ هائِلٌ. كانَتْ تِلْكَ سَفينَتَنا، وكانَتْ تَتَّجِهُ مُباشَرَةً إلى زَوْرَقِنا الصَّغيرِ.

صاحَ بنا سْتارْبَك: «اقْفِزوا! أنْجوا بحَياتِكُمْ!» فقَفَزْنا من زَوْرَقِنا في اللَّحْظَةِ الّتي لَطَمَتْ بها السَّفينَةُ الزَّوْرَقَ. ورُحْنا كُلُّنا نُنادي بأَعْلى صَوْتِنا بَحّارَةَ السَّفينَةِ لالتِقاطِنا. وشاءَتْ رَحْمَةُ اللهِ أنْ يَسْمَعَنا البَحّارَةُ فأَنْقَذونا. كانَتِ السَّفينَةُ تَبْحَثُ عَنّا، وقَدْ كادَ الجَميعُ يَيْأَسونَ مِنَ العُثورِ عَلَيْنا في تِلْكَ اللَّيْلَةِ البارِدَةِ العاصِفَةِ.



كانَ قد مَضى عَلَيْنا في البَحْرِ أسابيعُ، وكُنّا نَقْتَرِبُ اقْتِرابًا سَريعًا من رَأْسِ الرَّجاءِ الصّالِحِ. وقَدِ اشْتَهَرَ هٰذا الجانِبُ مِنَ المُحيطِ بأنَّهُ مَكانٌ مُناسِبٌ لصَيْدِ الحيتانِ. ثُمَّ شاهَدْنا يَوْمًا سَفينَةً غَريبَةً باليَةً، تُسَمّى ألْبَطْرُس.

اِقْتَرَبْنا مِنَ السَّفينَةِ اقْتِرابًا شَديدًا حتّى بِتْنا قادِرينَ على رُؤْيَةِ بَحّارَتِها الصّامِتينَ. بَدا البَحّارَةُ مُتْعَبينَ مُسِنّينَ كسَفينَتِهِم المُتْعَبَةِ المُسِنَّةِ. كانَتِ السَّفينَةُ المُلَطَّخَةُ بالمِلْحِ والمُغَطّاةُ بالصَّدَإِ في طَريقِ عَوْدَتِها إلى نانْتُكِت.



كانَ الجَوُّ في اليَوْمِ التّالي هادِئًا وحارًّا. ووَجَدَ البَحّارَةُ صُعوبَةً في مُغالَبَةِ النَّوْمِ في ذَلِكَ الجَوِّ. كانَ دَوْري في المُراقَبَةِ، ووَجَدْتُ نَفْسي لا أَقْوى على فَتْحِ عَيْنَيَّ مَعَ تَهادي الصّاري، فَغَفَوْتُ. وعِنْدَما تَنَبَّهْتُ من غَفْوَتي رَأَيْتُ حوتَ عَنْبَرٍ ضَخْمًا يَشُقُّ أَمْواجَ البَحْرِ، وقَدْ بَدا ظَهْرُهُ العَريضُ تَحْتَ السَّماءِ الصّافِيَةِ لَمّاعًا كالزُّجاجِ.

صِحْتُ بِانْفِعالٍ: «ها هو هُناكَ! ها هو هُناكَ!»

هَبَّتِ السَّفينَةُ من نَوْمِها، وتَرَدَّدَتِ الصَّيْحاتُ في أَرْجائِها.

صاحَ أهاب آمِرًا: «إِنْطَلِقوا بِالزَّوارِقِ!»

وَيَبْدو أَنَّ صِياحَ البَحّارَةِ المُفاجِئَ أَفْزَعَ الحوتَ، فغاصَ في الأَعْماقِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ الزَّوارِقُ إلى الماءِ.

إِنْتَظَرْنا في زَوارِقِنا الأَرْبَعَةِ الصَّغيرَةِ من دونِ إِحْداثِ صَوْتٍ. ثُمَّ بَرَزَ الحوتُ ثانِيَةً قُرْبَ زَوْرَقِ سْطَب. ورَأَيْنا طاشْطَغو يَقِفُ ويَقْذِفُ مِزْراقَهُ فيَغْرِزُهُ عَميقًا في ظَهْرِ الحوتِ. وراحَ الحوتُ في احْتِضارِهِ يَلْطِمُ البَحْرَ حَوْلَهُ فيَرْتَفِعُ الزَّوْرَقُ الصَّغيرُ ويَنْخَفِضُ كأَنَّما هو عودُ ثِقابٍ.

صاحَ سْطَب: «جَذِّفوا بِقُوَّةٍ! جَذِّفوا بِقُوَّةٍ!»

وعِنْدَما اقْتَرَبَ الزَّوْرَقُ مِنَ الحوتِ اسْتَلَّ سْطَب سِكّينًا كَبيرًا وأَغْمَدَهُ في خاصِرَةِ الحَيَوانِ، فتَفَجَّرَ دَمُهُ وسَكَنَ سُكونَ المَوْتِ.

قالَ طاشْطَغو: «إِنَّهُ مَيْتٌ.»

أَجابَ سْطَب بِهُدوءٍ، وهو يُشْعِلُ غَلْيونَهُ ويَتَأَمَّلُ الوَحْشَ الّذي قَضى عَلَيْهِ: «نَعَمْ، إِنَّهُ مَيْتٌ.»



أَقَمْنا يَوْمَيْنِ نَشْتَغِلُ في جَسَدِ الحوتِ المَشْدودِ في البَحْرِ إلى جانِبِ السَّفينَةِ، نَسْتَخْرِجُ منهُ دُهْنَهُ. فدُهْنُ الحوتِ يُذابُ فيَتَحَوَّلُ إلى زَيْتٍ ثَمينٍ يُصْنَعُ منهُ الصّابونُ والشُّموعُ ومَوادُّ أُخْرى.

أخيرًا قَطَعْنا الرَّأْسَ وأَفْلَتْنا الجَسَدَ الدّامِيَ!

اِنْطَلَقَتِ السَّفينَةُ سَريعَةً بَعْدَ أنْ تَخَفَّفَتْ من حِمْلِها، وسَرْعانَ ما اخْتَفى جَسَدُ الذَّبيحَةِ عن أَنْظارِنا. خَلَّفْنا وَراءَنا رُكامًا هائِلًا مِنَ المَوْتِ، تَرَكْناهُ لنَوارِسِ البَحْرِ وأَسْماكِ القِرْشِ الّتي كانَتْ قد بَدَأَتْ تَحْتَشِدُ حَوْلَهُ احْتِشادًا.

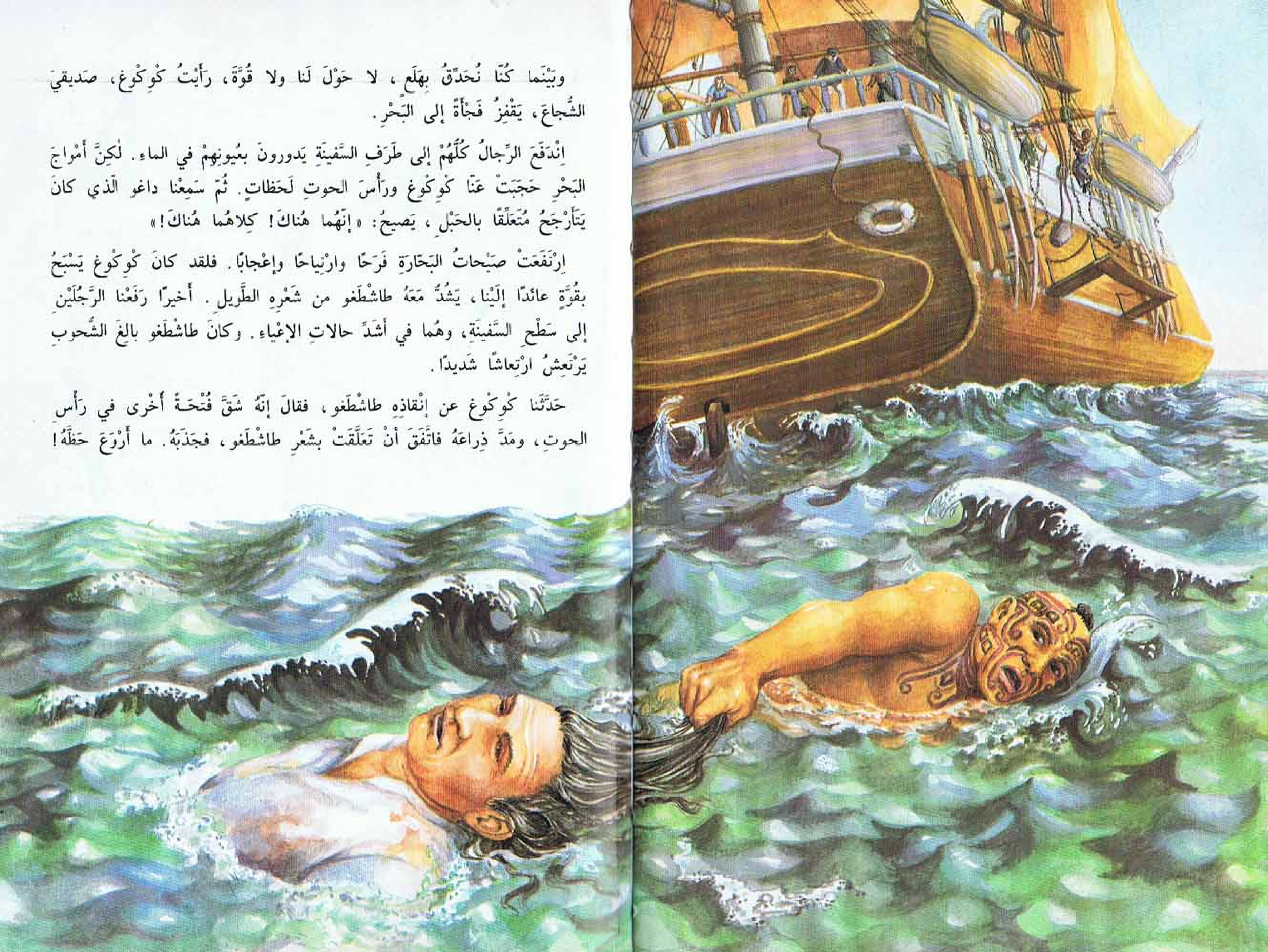
رَفَعْنا رَأْسَ الحوتِ مِنَ البَحْرِ بالمِرْفاعِ، وتَقَدَّمَ طاشْطَغو زاحِفًا كما يَزْحَفُ القِطُّ يَحْمِلُ دَلْوًا وسِكّينًا حادًّا. شَقَّ بسِكّينِهِ فُتْحَةً في الجِلْدِ السَّميكِ، ودَلّى دَلْوَهُ داخِلَ الرَّأْسِ. وعِنْدَما رَفَعَهُ كانَ مُمْتَلِئًا بأَغْلى الزُّيوتِ قاطِبَةً، زَيْتِ العَنْبَرِ.

وبَيْنَما كانَ طاشْطَغو يُدَلّي دَلْوَهُ للمَرَّةِ الثانِيَةِ مالَتِ السَّفينَةُ فَجْأَةً فاخْتَلَّ تَوازُنُهُ، ورَأَيْناهُ، أمامَ عُيونِنا المَذْعورَةِ، يَسْقُطُ في الفُتْحَةِ، ويَخْتَفي داخِلَ رَأْسِ الحوتِ.

تَسَلَّقَ داغو حَبْلًا وصاحَ بعامِلِ المِرْفاعِ قائِلًا: «شُدَّ الرَّأْسَ إلى هٰذِهِ النّاحِيَةِ.» وَقَعَ عِنْدَئِذٍ حادِثٌ آخَرُ!

فلقد زَحَلَ أَحَدُ الكُلّابَيْنِ الكَبيرَيْنِ اللَّذَيْنِ يَحْمِلانِ الرَّأْسَ. وقَبْلَ أنْ تُتاحَ الفُرْصَةُ لأَحَدِنا أنْ يَتَحَرَّكَ زَحَلَ الكُلّابُ الآخَرُ، وسَقَطَ الرَّأْسُ الهائِلُ في البَحْرِ. وإذْ تَحَرَّرَتِ السَّفينَةُ كُلِّيَّةً من حِمْلِها الثَّقيلِ انْدَفَعَتْ مُبْتَعِدَةً عَنِ الرَّأْسِ الّذي راحَ يَغْرَقُ غَرَقًا سَريعًا آخِذًا مَعَهُ واحِدًا من خيرَةِ رِجالِنا.

داخَلَنا شُعورٌ عَميقٌ بالعَجْزِ واليَأْسِ. كُنّا نُريدُ أنْ نَفْعَلَ شَيْئًا، ولا نَعْرِفُ ما نَفْعَلُ. نَصْرُخُ بأَصْواتٍ لا تَكادُ تَخْرُجُ من حَناجِرِنا، ونُلَوِّحُ دونَ هَدَفٍ، ونَنْتَفِضُ، ونُحَدِّقُ في البَحْرِ.



وبَيْنَما كُنّا نُحَدِّقُ بِهَلَع ، لا حَوْلَ لَنا ولا قُوَّةَ، رَأَيْتُ كُوكْوغ، صَديقيَ الشُّجاعَ، يَقْفِزُ فَجْأَةً إلى البَحْرِ.

اِنْدَفَعَ الرِّجالُ كُلُّهُمْ إلى طَرَفِ السَّفينَةِ يَدورونَ بعُيونِهِمْ في الماءِ. لٰكِنَّ أَمْواجَ البَحْرِ حَجَبَتْ عَنّا كُوكْوغ ورَأْسَ الحوتِ لَحَظاتٍ. ثُمَّ سَمِعْنا داغو الّذي كانَ يَتَأَرْجَحُ مُتَعَلِّقًا بالحَبْلِ ، يَصيحُ: «إنَّهُما هُناكَ! كِلاهُما هُناكَ!»

اِرْتَفَعَتْ صَيْحاتُ البَحّارَةِ فَرَحًا وارْتِياحًا وإعْجابًا. فلقد كانَ كُوكْوغ يَسْبَحُ بقُوَّةٍ عائدًا إلَيْنا، يَشُدُّ مَعَهُ طاشْطَغو من شَعْرِهِ الطَّويل. أخيرًا رَفَعْنا الرَّجُلَيْنِ إلى سَطْحِ السَّفينَةِ، وهُما في أشَدِّ حالاتِ الإعْياءِ. وكانَ طاشْطَغو بالِغَ الشُّحوبِ يَرْتَعِشُ ارْتِعاشًا شَديدًا.

حَدَّثَنا كُوكْوغ عن إنْقاذِهِ طاشْطَغو، فقالَ إنَّهُ شَقَّ فُتْحَةً أُخْرى في رَأْسِ الحوتِ، ومَدَّ ذِراعَهُ فاتَّفَقَ أنْ تَعَلَّقَتْ بشَعْرِ طاشْطَغو، فجَذَبَهُ. ما أَرْوَعَ حَظَّهُ!

بَعْدَ أنْ دَخَلْنا المُحيطَ الهِنْدِيَّ صارَ القُبْطانُ أهاب يَقْضي مُعْظَمَ وَقْتِهِ فَوْقَ سَطْحِ السَّفينَةِ. ونَسْمَعُهُ يُنادي المُراقِبينَ بنَفادِ صَبْرٍ: «أما من إشارَةٍ عَنِ الحوتِ الأَبْيَضِ؟ ألا تَرَوْنَ موبي دِك؟»

وكانَ الجَوابُ دائِمًا واحِدًا: «لا أَثَرَ لَهُ، يا سَيِّدي.»

مَرَرْنا ذاتَ يَوْمٍ بسَفينَةٍ إنْكليزِيَّةٍ. ورَأَيْنا قُبْطانَها على سَطْحِ السَّفينَةِ. كانَ رَجُلًا قَوِيًّا يَلْبَسُ مِعْطَفًا أَزْرَقَ فَضْفاضًا تَتَلاعَبُ به الرِّيحُ.

صاحَ أهاب: «أَرَأَيْتَ حوتًا أَبْيَضَ؟»

وكانَ جَوابُ القُبْطانِ الإنْكليزِيِّ أَنْ فَتَحَ مِعْطَفَهُ ورَفَعَ ذِراعًا بَيْضاءَ عَرَفْنا من فَوْرِنا أنها مَصْنوعَةٌ من عَظْمِ حوتٍ. وفي طَرَفِ الذِّراعِ قِطْعَةٌ من خَشَبٍ على شَكْلِ مِطْرَقَةٍ حَلَّتْ مَحَلَّ اليَدِ.

صاحَ أهاب آمِرًا: «أَعِدّوا زَوْرَقي!» وبَعْدَ لَحَظاتٍ انْطَلَقَ زَوْرَقُهُ إلى السَّفينَةِ الإنْكليزِيَّةِ، وقَدْ تَوَلّى فَيْضُ اللهِ، كعادَتِهِ، قِيادَةَ الدَّفَّةِ.

رَحَّبَ القُبْطانُ الإنْكليزِيُّ بأهاب تَرْحيبًا حارًّا، رافِعًا ذِراعَهُ الاصْطِناعِيَّةَ تَحِيَّةً.

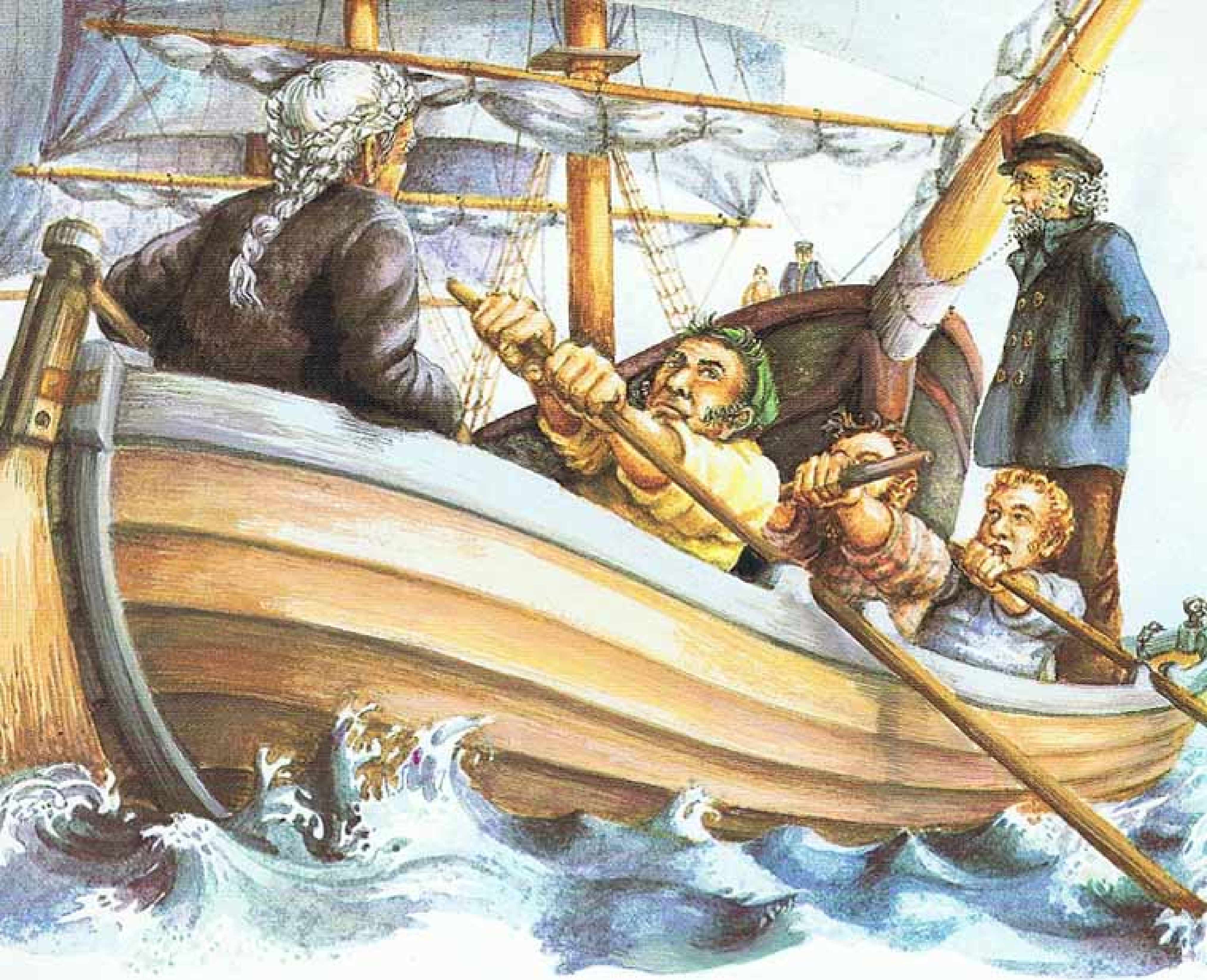
هَتَفَ أهاب: «هٰكَذا إذًا! ذِراعٌ وساقٌ! ذِراعٌ لن يُصيبَها الوَهَنُ، وساقٌ لن تَقْوى على الجَرْيِ! أَيْنَ رَأَيْتَ هٰذا الحوتَ؟ ومَتى؟»

أشارَ الرَّجُلُ الإنْكليزِيُّ إلى الشَّرْقِ، وقالَ: «اِلْتَقَيْتُهُ العامَ المُنْصَرِمَ.»

سَأَلَ أهاب بإلْحاحٍ: «وهو الّذي أَخَذَ ذِراعَكَ. أَلَيْسَ هو الّذي أَخَذَها؟»

فقالَ القُبْطانُ: «نَعَمْ. وأَخَذَ ساقَكَ أَيْضًا؟»

اِسْتَأْنَفَ أهاب كلامَهُ قائِلًا: «خَبِّرْني. كَيْفَ حَدَثَ ذٰلِكَ؟»



أجابَ الرَّجلُ: «لَمْ أكُنْ حينَذاكَ أعْرِفُ شَيْئًا عن هٰذا الحوتِ الأبْيَضِ. وذاتَ يَوْمٍ انْطَلَقَتْ زَوارِقُنا للصَّيْدِ، وسَرْعانَ ما اصْطَدْنا حوتًا كَبيرَ الحَجْمِ. وكانَ زَوْرَقي مَرْبوطًا إلَيْهِ عِنْدَما انْشَقَّ الماءُ عن جِرْمٍ أبْيَضَ هائِلٍ، وكأنَّما خَرَجَ مِن أعْماقِ البَحْرِ. وكانَ حوتًا ضَخْمًا، ذا رَأْسٍ أبْيَضَ وظَهْرٍ أبْيَضَ. وكانَ مُثْخَنًا بِالجِراحِ».

هَتَفَ أهاب: «إنَّهُ هو! إنَّهُ هو موبي دِك!»

تابَعَ القُبْطانُ يَقولُ: «وكانَ عالِقًا بجَسَدِهِ مَزاريقُ.»

قالَ أهاب: «تِلْكَ مَزاريقي! أنا قَذَفْتُهُ بها!»

تابعَ القُبْطانُ الإنْكليزيُّ يَقولُ: «كانَ أكْبَرَ حوتٍ وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنايَ. أمْسَكْتُ مِزْراقًا وقَذَفْتُهُ به. عِنْدَئِذٍ أعْماني فَجْأةً ماءُ البَحْرِ. فَقَدْ هَوى ذَيْلُهُ هُوِيَّ بُرْجٍ، فشَقَّ زَوْرَقي نِصْفَيْنِ، وحَطَّمَهُ تَحْطيمًا. أسْرَعَ بَحّارَتي يَسْبَحونَ مُبْتَعِدينَ للنَّجاةِ بأنْفُسِهِمْ. أمّا أنا فقَدْ تَمَسَّكْتُ، تَجَنُّبًا لذَيْلِهِ، بِمِزْراقٍ من تِلْكَ المَزاريقِ الّتي كانَتْ عالِقَةً بجَسَدِهِ. عِنْدَئِذٍ غاصَ الوَحْشُ فَجْأةً، فعَلِقْتُ في مِزْراقٍ آخَرَ وجُرِرْتُ حَتّى كِدْتُ أصِلُ قاعَ المُحيطِ. ولٰكِنّي أفْلَتُّ، حَمْدًا لله، بَعْدَ أنْ تَمَزَّقَتْ ذِراعي العالِقَةُ بالمِزْراقِ. وقَدِ الْتَهَبَتْ ذِراعي المُمَزَّقَةُ وتَلَوَّثَتْ ففَقَدْتُها. وعَلِمْتُ فيما بَعْدُ أنّ الوَحْشَ الّذي الْتَقَيْتُهُ هو موبي دِك».

سَأَلَ أهاب قائلًا: «وهَلِ الْتَقَيْتَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ؟»

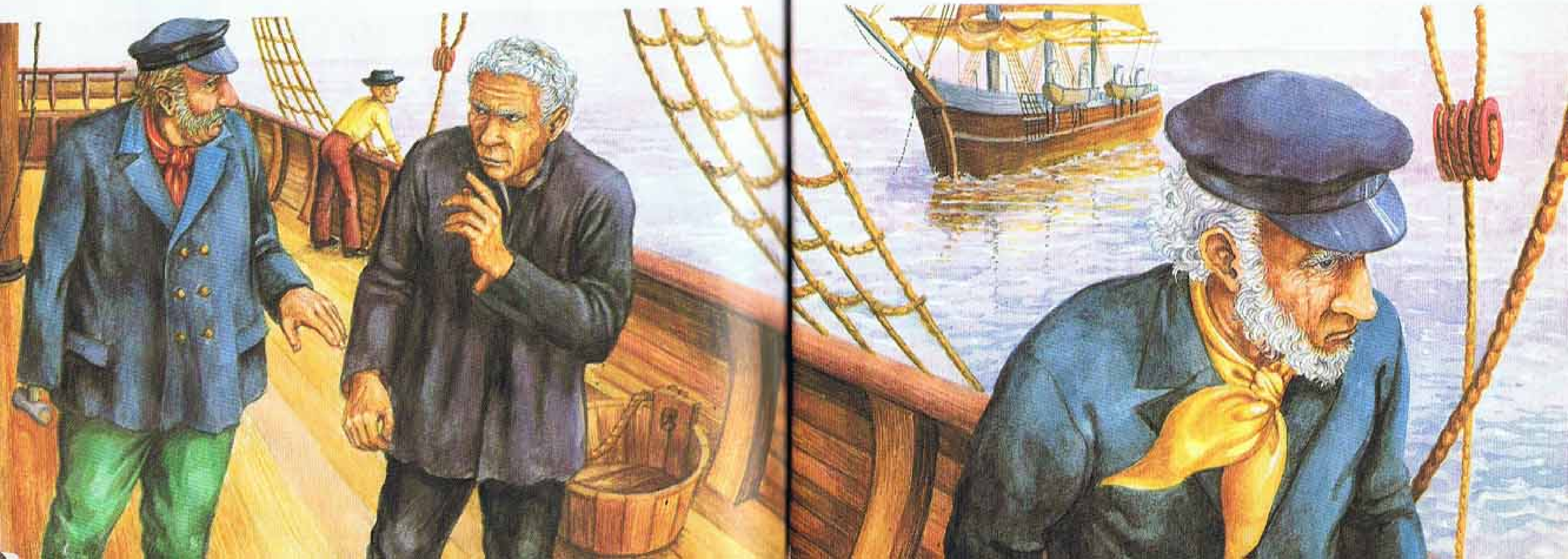
أجابَ القُبْطانُ: «مَرَّتَيْنِ. ولٰكِنْ لَمْ أُحاوِلْ صَيْدَهُ. ألا تَكْفي ذِراعٌ واحِدَةٌ؟ نازَلْتُهُ مَرَّةً، وذٰلِكَ يَكْفيني.»

قالَ أهاب وهو يَسْتَديرُ عائِدًا، وقَدْ أطَلَّتْ من عَيْنَيْهِ نَظْرَةٌ شَرِسَةٌ: «أتَقولُ إنّهُ كانَ يَتَّجِهُ شَرْقًا؟»

أسْرَعَ القُبْطانُ الإنْكليزيُّ يَقولُ: «ماذا دَهاكَ؟» ثُمَّ الْتَفَتَ إلى فَيْضِ الله وقالَ هامِسًا: «أمَجْنونٌ قُبْطانُكَ؟»

وكانَ جَوابُ فَيْضِ اللهِ أنْ وَضَعَ إصْبَعًا على شَفَتَيْهِ إشارَةً إلى أنّهُ يُريدُهُ أنْ يَسْكُتَ، ثُمّ انْسَلَّ مُنْسَحِبًا بصَمْتٍ لِيَلْحَقَ بقُبْطانِهِ في الزَّوْرَقِ المُنْتَظِرِ.

وعَبَثًا راحَ القُبْطانُ الإنْكليزيُّ يُنادي أهاب، فلقد وَقَفَ أهاب مُديرًا ظَهْرَهُ إلى سَفينَةِ الغَريبِ، يُحَدِّقُ في سَفينَتِهِ هو بوَجْهٍ جامِدٍ كأنّما قُدَّ من صَخْرٍ. وظَلَّ على هٰذِهِ الحالِ إلى أنْ صَعِدَ إلى مَتْنِ سَفينَتِهِ.



عادَ الطَّقسُ إلى الاعتِدالِ، وهكَذا أعَدَّ پيرْث، حَدّادُ السَّفينَةِ العَجوزُ، نارًا لتَصْليحِ المَزاريقِ المَكسورَةِ والأَسِنَّةِ المُثَلَّمَةِ. وبَيْنَما كانَ ذاتَ يَوْمٍ يَطْرُقُ سِنانَ مِزْراقٍ مُحْمًى جاءَهُ القُبْطانُ أهاب يَحْمِلُ حَقيبَةً جِلْدِيَّةً صَغيرَةً.

قالَ وهو يَفْتَحُ الحَقيبَةَ: «يا پيرْث، أتَرى هٰذه المَساميرَ، إنّها من أصْلَبِ أنْواعِ الحَديدِ. أُريدُكَ أنْ تَصْنَعَ لي منها مِزْراقًا لا يَسْتَطيعُ ألْفُ شَيْطانٍ كَسْرَهُ. اِصْنَعْ لي ذٰلكَ المِزْراقَ. سأُساعِدُكَ في إذْكاءِ النّارِ.»

وبَيْنَما كانَ الرَّجُلانِ يَعْمَلانِ مَعًا، مرَّ فَيْضُ اللهِ، فانْحَنى وراحَ يُتَمْتِمُ بِعِباراتٍ. لَعَلَّهُ كانَ يَلْعَنُ النّارَ، أو لَعَلَّهُ كانَ يَنْفُخُ فيها دَعَواتٍ ليَأْتِيَ المِزْراقُ مُرْعِبًا.

وعِنْدَما حانَ وَقْتُ سَقْيِ الحَديدِ المُحْمى بالماءِ صاحَ أهاب: «لا، لا! لَيْسَ بالماءِ يُسْقى هٰذا المِزْراقُ! عَلَيْنا أنْ نَرْوِيَهُ بالدَّمِ.»

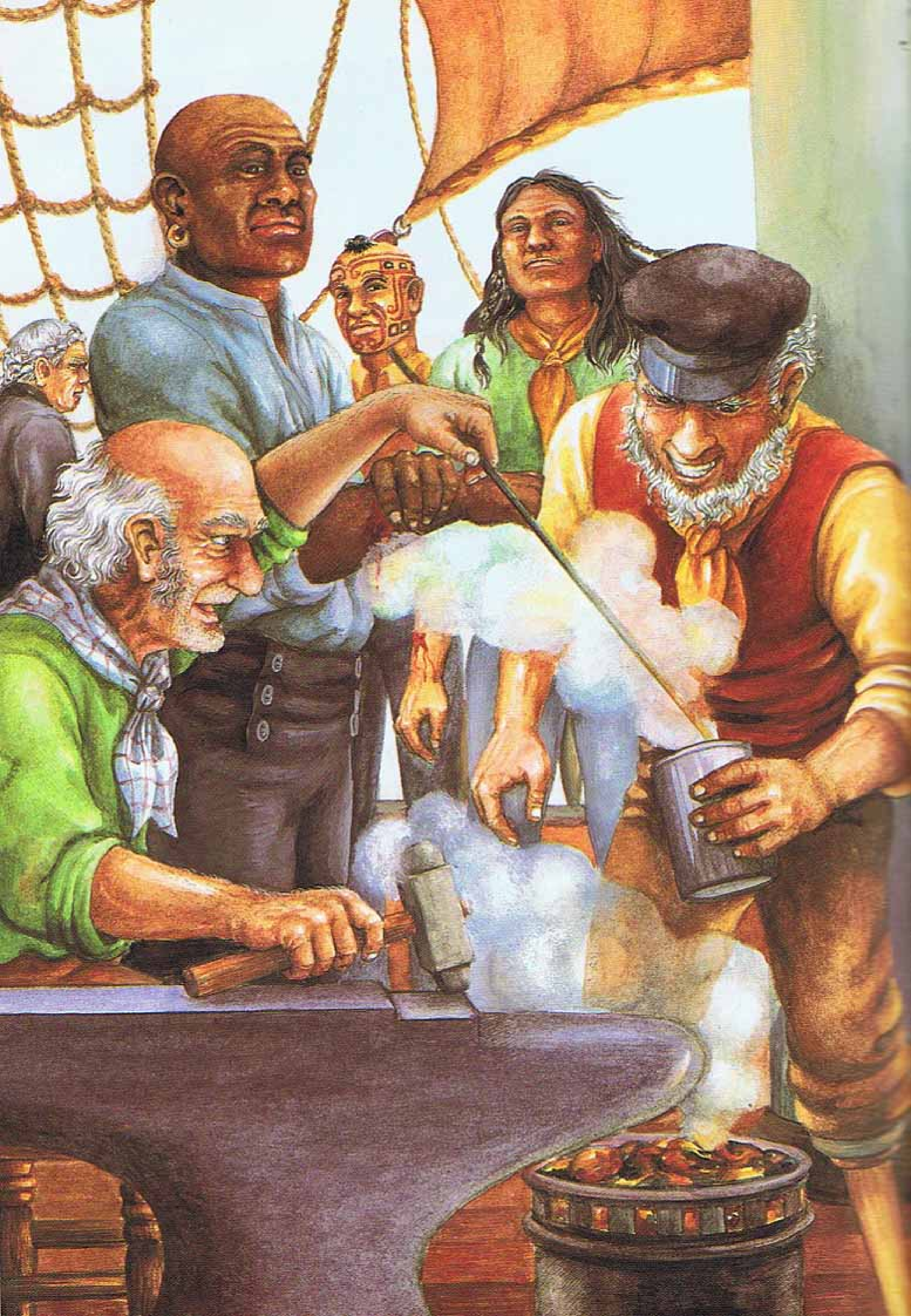
وتَلَفَّتَ حَوْلَهُ، فوَقَعَ بَصَرُهُ على كُوكْوغ وطاشْطَغو وداغو، فصاحَ يُناديهِمْ قائلًا:

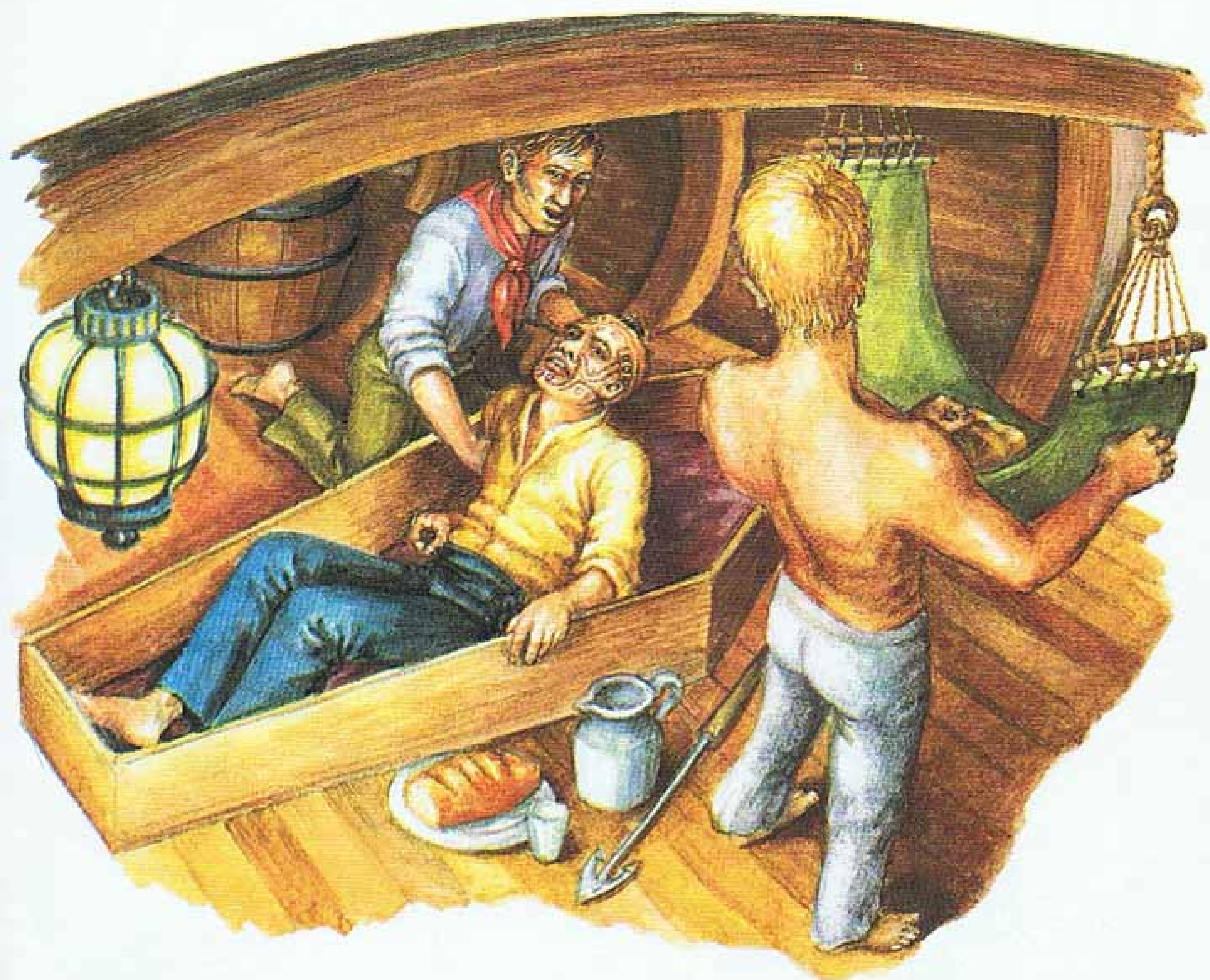
«ما قَوْلُكُمْ يا رِجالُ؟ أتُعْطونَني من دَمِكُمْ ما يَكْفي لسَقْيِ هٰذا المِزْراقِ؟»

جاءَ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ راكِضينَ، وقالوا بحَماسَةٍ: «نَعَمْ، نُعْطيكَ من دَمِنا، يا قُبْطانُ!»

شُقَّتْ أذْرُعُ الرِّجالِ الثَّلاثَةِ وجَمَعَ القُبْطانُ الدَّمَ في عُلْبَةٍ. ثُمَّ لَفَظَ بلَعْنَةٍ مُريعَةٍ فَوْقَ المِزْراقِ نَغَّمَها تَنْغيمًا. ونَشَّ الحَديدُ المُحْمى نَشيشًا صاخِبًا إذْ غَمَسَهُ القُبْطانُ في الدَّمِ القاني.

دَبَّتْ في أجْسادِ الرِّجالِ رِعْشَةٌ بارِدَةٌ. أحَسّوا كأنَّ نَشيشَ الدَّمِ والحَديدِ قَدِ اخْتَرَقَ عِظامَهُمْ. وتَحَوَّلَتْ حَماسَتُهُمْ إلى صَمْتٍ يَكادُ يُفْصِحُ بِألْفِ هاجِسٍ. أمّا القُبْطانُ أهاب فَقَدِ انْتَفَخَ صَدْرُهُ وبَرَقَتْ عَيْناهُ بسَعادَةٍ قاسِيَةٍ غَريبَةٍ.





تابَعَتْ سَفينَتُنا رِحْلَتَها. وذاتَ يَوْمٍ مَرِضَ كُوكُوغ مَرَضًا شَديدًا. ثُمّ اشْتَدَّ عَلَيْهِ المَرَضُ حَتّى ظَنَّ الجَميعُ أنّهُ يُحْتَضَرُ. فَبَيْنا هو يَشْكو لَحْظَةً مِنَ الحُمّى الشَّديدَةِ، إذا به في اللَّحْظَةِ التّالِيَةِ يَرْتَجِفُ بَرْدًا. إسْتَدْعى أخيرًا النَّجّارَ وطَلَبَ منهُ أنْ يُعِدَّ له نَعْشًا. نَهَضَ النَّجّارُ لعَمَلِهِ ذاكَ بقَلْبٍ مُثْقَلٍ حَزين. وعِنْدَما أَصْبَحَ النَّعْشُ جاهِزًا، طَلَبَ كُوكُوغ أنْ يُسَجّى في داخِلِهِ ويُزَوَّدَ بالخُبْزِ والماء. ومُنْذُ ذلِكَ اليَوْمِ، بَدَأَ كُوكُوغ يَتعافى، مُفاجِئًا الجَميعَ، وكأنّهُ عَزَمَ فَجْأةً على ألّا يَموتَ. وسَرْعانَ ما جاءَنا يَقولُ إنّهُ في صِحّةٍ جَيِّدَةٍ، واسْتَأْنَفَ أعْمالَهُ المُعْتادَةَ.

وفي أثْناءِ عُبورِنا بَحْرَ اليابانِ نادِرًا ما كانَ أهاب يَتْرُكُ سَطْحَ السَّفينَةِ. وكانَ

يَزْدادُ مَيْلًا إلى الكَلامِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، لٰكِنْ لا يُكَلِّمُ إلّا فَيْضَ اللهِ. وأمّا الآخَرونَ فكانَ مَعَهُمْ جافًّا بَلْ وقِحًا.

كُنْتُ ذاتَ يَوْمٍ أعْمَلُ في جِوارِهِما فسَمِعْتُ حَديثًا جعَلَني أقْطَعُ الرَّأْيَ أنَّ أهاب رَجُلٌ مَجْنونٌ.

قالَ أهاب: «أُنْظُرْ إلَيَّ، يا فَيْضَ اللهِ. أُنْظُرْ في عَيْنَيَّ!»

لٰكِنَّ فَيْضَ اللهِ لَمْ يَمْتَثِلْ، واكْتَفى بالنَّظَرِ إلى أعْلى كَتِفِ أهاب.

عادَ أهاب يَقولُ: «يا فَيْضَ اللهِ، أقولُ لَكَ انْظُرْ إلَيَّ! ماذا تَظُنُّ أنَّكَ فاعِلٌ؟»

أجابَ فَيْضُ اللهِ مُتَمَهِّلًا: «أَنْظُرُ في المُسْتَقْبَلِ.»

قالَ أهاب يَسْتَحِثُّهُ: «وماذا تَرى؟ قُلْ لي.»

«أرى نَعْشَيْنِ، أيُّها العَجوزُ. قَبْلَ أنْ تَموتَ سَتَرى في البَحْرِ نَعْشَيْنِ؛ الأَوَّلِ لَمْ تَصْنَعْهُ يَدُ إنْسانٍ؛ والثّاني مَصْنوعٌ من خَشَبِ بِلادِكَ. وسَتَرى النَّعْشَيْنِ في رِحْلَتِكَ هٰذه.»

دَبَّتْ في جَسَدِ أهاب رِعْشَةٌ، وقالَ: «لٰكِنَّ النُّعوشَ تَكونُ على اليابِسَةِ ولَيْسَ في البَحْرِ.»

رَدَّ فَيْضُ اللهِ: «لٰكِنّي أراها في البَحْرِ.»

سَأَلَ أهاب: «وماذا تَرى غَيْرَ ذٰلِكَ؟»

«أرى نُعوشًا ـ نُعوشًا في البَحْرِ، تَحْمِلُ مَوْتى. مَوْتى، كُلُّهُمْ مَوْتى، ما عَدا واحِدًا. وأَعْلَمُ أَيْضًا أنّي سأموتُ قَبْلَ مَوْتِكَ، لٰكِنّي أقودُكَ إلى موبي دِك، وسَتَراني عِنْدَئِذٍ مَرَّةً أُخْرى تَموتُ بَعْدَها.»

دَبَّتِ الرِّعْشَةُ في أهاب ثانِيَةً، وقالَ: «ستَبْقى مُنْذُ الآنَ إلى جانِبي، حتّى إذا رأَيْتَ موبي دِك أَعْرِفُ مِنْكَ ذٰلِكَ في الحالِ.»

أجابَ فَيْضُ اللهِ: «نَعَمْ، يا سَيِّدي.»

أَفْزَعَتْ تِلْكَ الكَلِماتُ أهاب، وبِمُرورِ الأيّامِ ازْدادَ القَلَقُ وُضوحًا على وَجْهِهِ. لقد شَحَنَتْ فيه تِلْكَ المُطارَدَةُ الّتي لا نِهايَةَ لَها مِنَ الانْفِعالِ ما لا يَقْوى عَلَيْهِ البَشَرُ. فسَعَيْنا كُلُّنا لتَجَنُّبِهِ، إذْ رأَيْنا في تَصَرُّفاتِهِ جُنونًا مُطْبَقًا.

كانَتِ الشَّمْسُ الحارِقَةُ، مَعَ تَوالي الأيّامِ، تَنْصَبُّ بشَراسَةٍ على السَّفينَةِ. وكانَ أهاب يَزْدادُ نَزَقًا وسُرْعَةَ انْفِعالٍ، ولَمْ يَجِدْ مُتَنَفَّسًا لَهُ إلّا في تَوْجيهِ الشَّتائِمِ واللَّعَناتِ، لَنا ولموبي دِك. وحَدَثَ في إحْدى اللَّيالي أنْ هَبَّتْ عَلَيْنا عاصِفَةٌ هَوْجاءُ، ضَرَبَتْنا كما تَضْرِبُ قُنْبُلَةٌ مَدينَةً نائِمَةً، فمَزَّقَتْ أَشْرِعَتَنا وحَمَلَتْ مَعَها كُلَّ ما لَمْ يَكُنْ مُثَبَّتًا بإحْكامٍ. وفي غَمْرَةِ الرَّعْدِ القاصِفِ والبَرْقِ اللّامِعِ انْقَضَّتْ مَوْجَةٌ عاتِيَةٌ وحَطَّمَتْ زَوْرَقَ أهاب في مُؤَخَّرَةِ السَّفينَةِ.



بَدا القَلَقُ على سْتارْبَك وقالَ لِسطَب: «لا يُعْجِبني ذٰلِكَ. فالعاصِفَةُ آتِيَةٌ مِنَ الشَّرْقِ وهي الجِهَةُ الّتي اخْتارَ أهاب أنْ يَسْلُكَها. لقد تَحَطَّمَ زَوْرَقُهُ في المَكانِ عَيْنِهِ الّذي اعْتادَ أنْ يَقِفَ فيهِ. أخْشى ألّا نَحْصُدَ من هٰذِهِ المُغامَرَةِ إلّا المَصائِبَ.

ثُمَّ صاحَ فَجْأَةً: «أُنْظُرْ، أُنْظُرْ هُناكَ!»

كانَ رَأْسُ الصّاري يَشْتَعِلُ بنارٍ شاحِبَةٍ. وسَرْعانَ ما امْتَدَّتِ النّارُ إلى الأَشْرِعَةِ مُقْتَرِبَةً مِنَ الزَّوارِقِ. وسَجَدَ بَعْضُ البَحّارَةِ وصَلّوا للهِ كي يَلْطُفَ بعِبادِهِ. وأَحْسَسْنا كُلُّنا بالذُّعْرِ أمامَ ذٰلِكَ المَشْهَدِ، ما عَدا أهاب.

صاحَ أهاب صِياحَ مَجْنونٍ، قائِلًا: «نَعَمْ، يا رِجالُ. راقِبوا جَيِّدًا هٰذِهِ النّارَ البَيْضاءَ لأنَّها تُرينا الطَّريقَ إلى الحوتِ الأَبْيَضِ.»

كانَ المِزْراقُ الّذي صَنَعَهُ بيرْث لا يَزالُ في الزَّوْرَقِ المَعْطوبِ، وفَجْأَةً رَأَيْنا أَلْسِنَةً من لَهَبٍ شاحِبٍ تَنْدَلِعُ من سِنانِهِ.

أَمْسَكَ سْتارْبَك أهاب من ذِراعِهِ، وناشَدَهُ قائِلًا: «كَفى، أَيُّها الشَّيْخُ. اللهُ غَيْرُ راضٍ عن مُغامَرَتِكَ الشِّرّيرَةِ هٰذِهِ. اِسْتَدِرْ بسَفينَتِكَ ما دُمْنا قادِرينَ على ذٰلِكَ، ولْنَتَّجِهْ مُباشَرَةً إلى الوَطَنِ.»

رَكَضَ الرِّجالُ، وقَدْ تَمَلَّكَهُمُ الخَوْفُ، إلى مَواقِعِهِمْ مِنَ السَّفينَةِ اسْتِعْدادًا لِتَنْفيذِ الأَمْرِ الوَحيدِ الّذي بَدا لَهُمْ، مُنْذُ بَدْءِ رِحْلَتِهِمْ، مَعْقولًا. لٰكِنَّ أهاب انْتَصَبَ أمامَنا جَميعًا مُمْسِكًا بالمِزْراقِ الّذي كانَ لا يَزالُ يَشْتَعِلُ، وصاحَ: «أَقْسَمْتُمْ كُلُّكُمْ أنْ تُطارِدوا الحوتَ الأَبْيَضَ، وهٰذا القَسَمُ يُلْزِمُكُمْ ويُلْزِمُني. أنا لن أَهْرُبَ، وأَنْتُمْ أَيْضًا لن تَهْرُبوا. وانْظُروا، سأُطْفِئُ مَخاوِفَكُمْ!»

ثُمَّ أَطْفَأَ اللَّهَبَ بنَفْخَةٍ واحِدَةٍ.





كانَ البَحْرُ في اليَوْمِ التّالي لا يَزالُ هائِجًا والرِّياحُ شَديدَةً. لٰكِنَّ أهاب كانَ على حالٍ مِنَ الهُدوءِ لَمْ نَعْهَدْها بِهِ مِنْ قَبْلُ قَطُّ. كُنّا لا نَزالُ خائِفينَ، لٰكِنّا اسْتَمْرَرْنا في طاعَتِنا للأوامِرِ، وتَسْييرِ أعْمالِ السَّفينَةِ كالمُعْتادِ. ولَمْ يَدُرْ في خَلَدِ أحَدٍ أنْ يَتَصَرَّفَ غَيْرَ هٰذا التَّصَرُّفِ أو أنْ يَعْصِيَ أوامِرَ القُبْطانِ.

كانَ الإرْهاقُ، مُنْذُ زَمَنٍ طَويل، قد أصابَ الرِّجالَ، فلَمْ نَكُنْ قد شاهَدْنا اليابِسَةَ طَوالَ هٰذِهِ الرِّحْلَةِ. وكُنّا دائمًا نَتَّجِهُ شَرْقًا، لا شَيْءَ غَيْرُ الشَّرْقِ، مُلْزَمينَ بالقَسَمِ الّذي كُنّا مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ قد أَلْزَمْنا بِهِ أنْفُسَنا بمِلْءِ إرادَتِنا.

فَجْأَةً شَقَّ الفَضاءَ صَوْتُ صَرْخَةٍ مُدَوِّيَةٍ. لقد فَقَدَ المُراقِبُ فَوْقَ الصّاري تَوازُنَهُ، وكان أشَدَّنا تَعَرُّضًا لاهْتِزازِ السَّفينَةِ المُتَأَرْجِحَةِ، وهَوى في البَحْرِ.



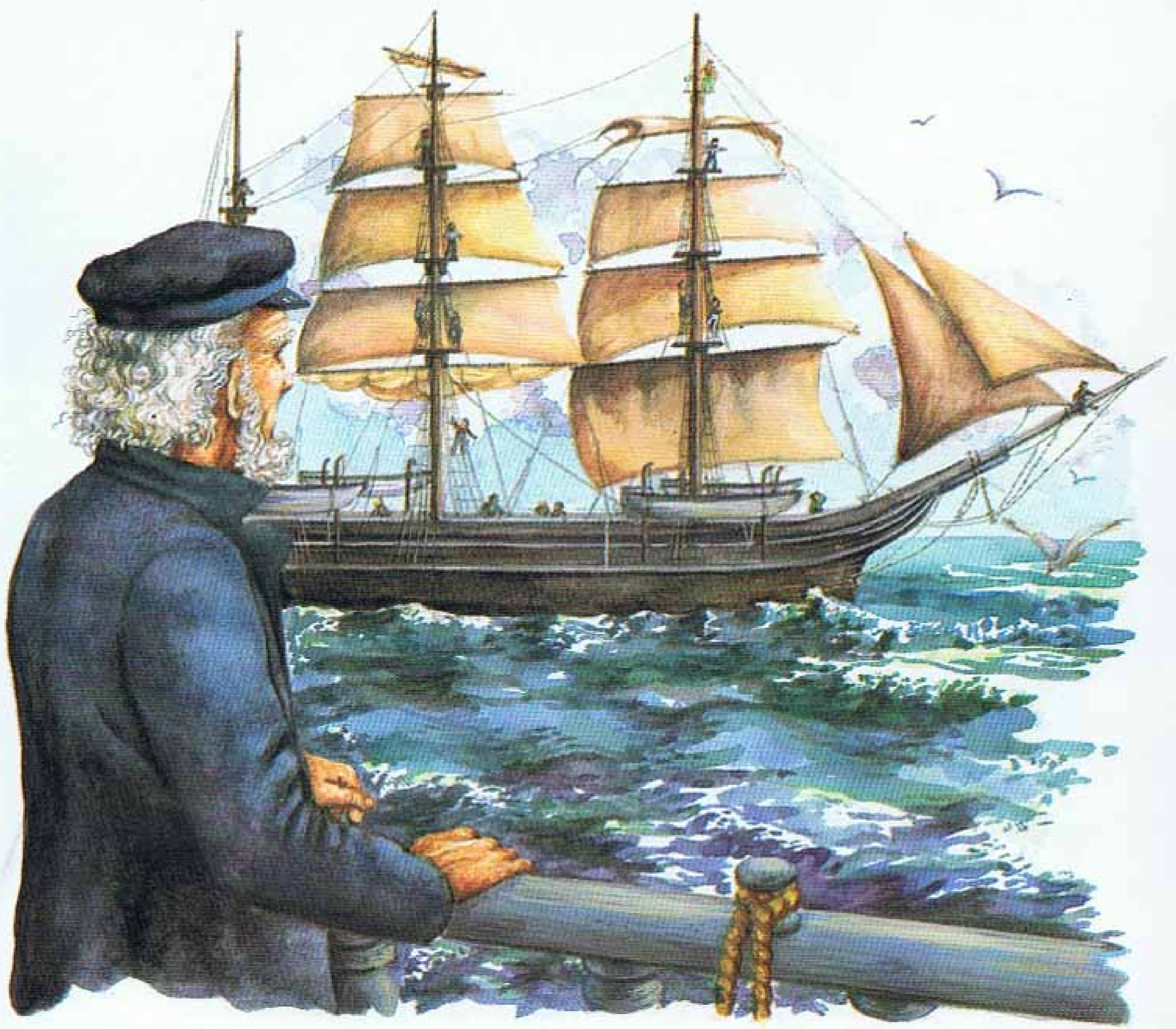
أُلْقِيَ بطافِيَةِ النَّجاةِ إلى الماءِ. لٰكِنَّ تِلْكَ الطّافِيَةَ الّتي كانَتْ مُعَرَّضَةً طَوالَ الوَقْتِ لصَدَماتِ المَوْجِ وأشِعَّةِ الشَّمْسِ الحارِقَةِ، والّتي أُهْمِلَ أمْرُها سَنَواتٍ، غَرِقَتْ بُعَيْدَ ارْتِطامِها بالماءِ. ورأَيْنا لَحْظَةَ غَرَقِها يَدًا تَمْتَدُّ إلَيْها.

أمَرَ القُبْطانُ أهاب الضّابِطَ سْتارْبَك إيجادَ طافِيَةِ نَجاةٍ جَديدَةٍ. لٰكِنْ لَمْ يَكُنْ في السَّفينَةِ بِرْميلٌ صالِحٌ جاهِزٌ لِهٰذِهِ الغايَةِ.

عِنْدَئِذٍ تَكَلَّمَ كُوكْوغ. قالَ: «اِسْتَعْمِلوا نَعْشي. فذٰلِكَ طافِيَةٌ مُناسِبَةٌ!»

صاحَ سْتارْبك في ذُعْرٍ: «نَعْشٌ يَكونُ طافِيَةَ نَجاةٍ! لا أحْتَمِلُ هٰذِهِ الفِكْرَةَ.»

أسْرَعَ أهاب يَقولُ: «ولِمَ لا؟ إنَّهُ يَفي بالحاجَةِ. سَمِّرْ غِطاءَهُ وسُدَّ شُقوقَهُ واطْلِهِ.» وهٰكذا كانَ.



في اليَوْمِ التّالي شاهَدْنا سَفينَةً كَبيرَةً من سُفُنِ ميناء نانْتُكِت، عائِدَةً إلى الوَطَنِ، لٰكِنْ بَدا لَنا مَشْهَدُ السَّفينَةِ مُحَيِّرًا. كانَ البَحارَةُ كُلُّهُمْ في الخِدْمَةِ. اِعْتَلى بَعْضُهُمُ الصَّواريَ وراحوا يُحَدِّقونَ في البَحْرِ وقَدْ ظَلَّلوا عُيونَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ بِأَكُفِّهِمْ، وكأَنَّهُمْ يَبْحَثونَ عن شَيْءٍ.

وقَبْلَ أَنْ تُتاحَ لِقُبْطانِ تِلْكَ السَّفينَةِ فُرْصَةُ مُناداتِنا، سَمِعْنا صَوْتَ القُبْطانِ أهاب يَصْرُخُ قائِلًا: «أَنْتُمْ هُناكَ! هَلْ رَأَيْتُمُ الحوتَ الأَبْيَضَ؟»

وكانَ الجَوابُ: «نَعَمْ، رَأَيْناهُ أَمْسِ. وأَنْتُمْ هَلْ رَأَيْتُمْ زَوْرَقَ صَيْدِ حيتانٍ؟»

بَعْدَ دَقائِقَ كانَ قُبْطانُ السَّفينَةِ الكَبيرَةِ، وهُوَ ابْنُ نانْتُكِت، قد صَعِدَ إلى مَتْنِ سَفينَتِنا. وكانَتْ تَجْمَعُ بَيْنَهُ وبَيْنَ أهاب صَداقَةٌ قَديمَةٌ. لٰكِنَّ أهاب، هٰذِهِ المَرَّةَ، لَمْ يُرَحِّبْ بصَديقِهِ، بَلْ راحَ يُوَجِّهُ إلَيْهِ الأسْئِلَةَ بأُسْلوبِهِ الجافّ:

«أيْنَ هو؟ أنْتَ لَمْ تَقْتُلْهُ، هَلْ قَتَلْتَهُ؟»

رَوى القُبْطانُ الضَّيْفُ رِوايَتَهُ، قالَ: «أمْسِ كُنّا نَصْطادُ الحيتانَ بَعيدًا عن سَفينَتِنا، فلَمَحْنا موبي دِك في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ السَّفينَةِ. فانْطَلَقَ زَوْرَقٌ رابِعٌ لمُطارَدَتِهِ وعلى مَتْنِهِ ابْني. لٰكِنَّ الزَّوْرَقَ خَرَجَ ولَمْ يَعُدْ. فأتَوَسَّلُ إلَيْكَ أنْ تُساعِدَني في البَحْثِ عَنِ ابْني.»

إلّا أنَّ أهاب وَقَفَ هُناكَ جامِدًا لا يَفوهُ بِكَلِمَةٍ.

عادَ القُبْطانُ الضَّيْفُ إلى تَوَسُّلِهِ، فقالَ: «أرْجوكَ! تَصَوَّرْ أنَّ المَفْقودَ ابْنُكَ!» ثُمَّ التَفَتَ إلَيْنا وقالَ: «اِجْروا يا رِجالُ، حَوِّلوا اتِّجاهَ السَّفينَةِ.»

صاحَ أهاب عِنْدَئِذٍ: «قِفوا! آسَفُ يا قُبْطانُ، إذا ساعَدْتُكَ ضَيَّعْتُ وَقْتًا، وهٰذا ما لا أُطيقُهُ. فلْيَحْفَظْكَ اللهُ، ولْيَغْفِرْ لي.»

ثُمَّ التَفَتَ إلى سْتارْبك، وقالَ بجَفاءٍ: «يا سَيِّدُ سْتارْبَك، أُريدُ أنْ يُغادِرَ الأغْرابُ كُلُّهُمُ السَّفينَةَ في خِلالِ ثَلاثِ دَقائِقَ. سنُبْحِرُ في اتِّجاهِنا المَعْهودِ.»

بَدا القُبْطانُ الضَّيْفُ كأنّما يَعيشُ لَحْظَةَ كابوسٍ ثَقيلَةً. وبَدَتْ على وَجْهِهِ أحاسيسُ مُتَزاحِمَةٌ من فَزَعٍ وحَيْرَةٍ وبَقِيَّةٍ من أمَلٍ. أمّا أهاب فقد زايَلَتْ وَجْهَهُ مَشاعِرُ الِانْفِعالِ وأدارَ ظَهْرَهُ ومَشى مِشْيَةً ثابِتَةً.

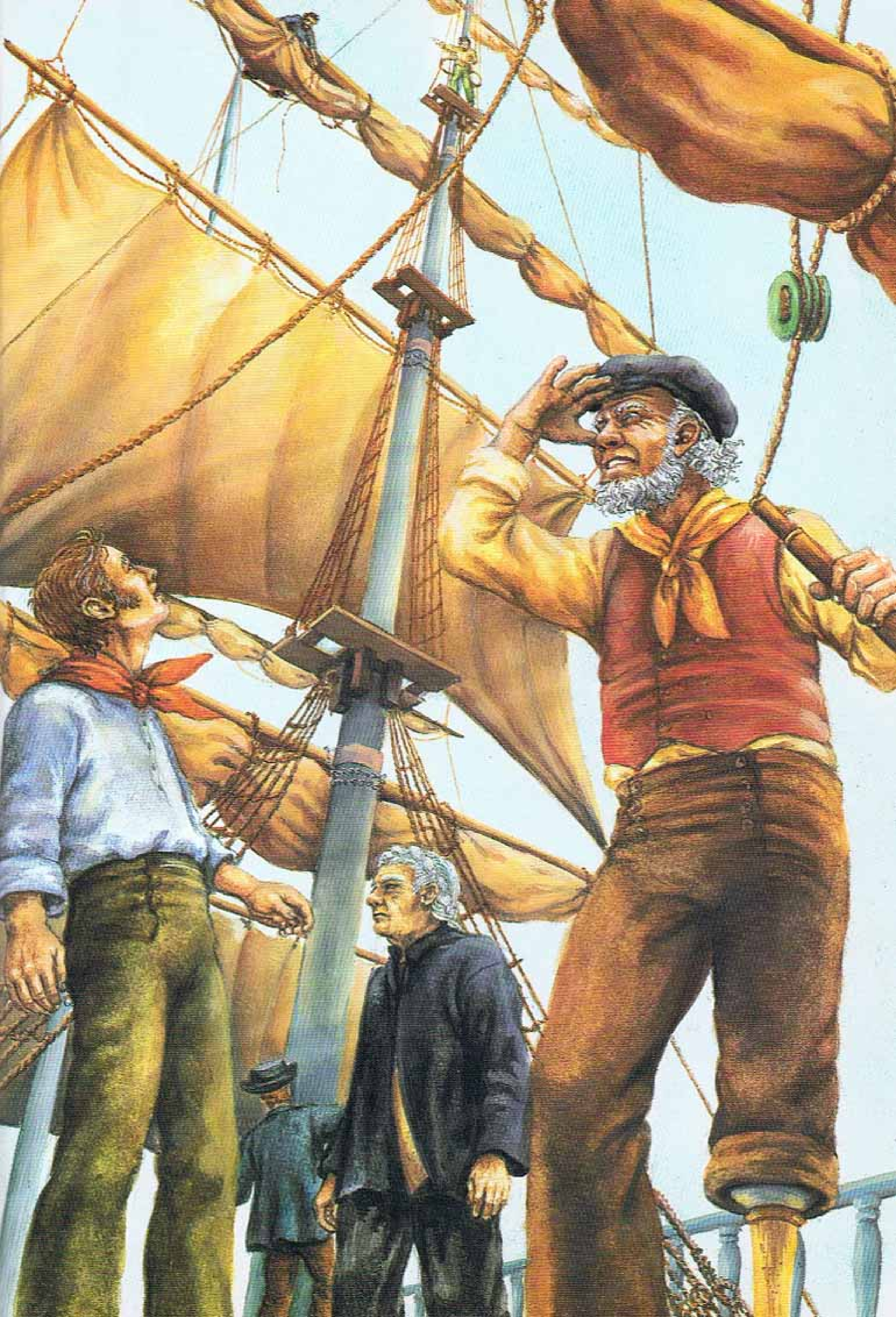
كانَتِ السَّفينَةُ الأُخْرى لا تَزالُ تَتمايَلُ، ولا يَزالُ بَحارَتُها يَجولونَ في البَحْرِ بأبْصارِهِمْ بَحْثًا عَنِ الزَّوْرَقِ المَفْقودِ، لٰكِنَّ أهاب لَمْ يَلْتَفِتْ قَطُّ ناحِيَتَهُمْ. لقد كانَتْ عَيْناهُ مَشْدودَتَيْنِ صَوْبَ الشَّرْقِ - صَوْبَ الشَّرْقِ أبَدًا.

لَمْ يَعُدْ سَطْحُ السَّفينَةِ الآنَ يَسَعُ أهاب، فقَدْ غَدا موبي دِك قَريبًا، وكانَ لا بُدَّ مِنَ العُثورِ عَلَيْهِ. أَعْطى أهاب أَمْرًا بتَثْبيتِ كُرْسِيٍّ فَوْقَ أحَدِ الصَّواري. وهُناكَ أقامَ يُراقِبُ مُراقَبَةً مُتَواصِلَةً انْتِظارًا لرُؤْيَةِ عَدُوِّهِ اللَّدودِ.

وكُنّا كُلُّنا نُراقِبُهُ صامِتينَ، ونَرْتَجِفُ في سِرِّنا. ولَمْ يَعُدْ أهاب يَنْزِلُ إلى داخِلِ السَّفينَةِ. كانَ يَذْرَعُ سَطْحَ السَّفينَةِ لَيْلًا، ويَصْعَدُ إلى كُرْسِيِّهِ فَوْقَ الصّاري نَهارًا، لا يَتَخَلَّفُ عن ذٰلِكَ قَطُّ.

تابَعَتْ سَفينَتُنا رِحْلَتَها، وتَوالَتِ الأيّامُ، وتَوالى المَوْجُ؛ وكانَ النَّعْشُ الّذي تَحَوَّلَ إلى طافِيَةِ نَجاةٍ، يَتَأَرْجَحُ أمامَ أعْيُنِنا في مُؤَخَّرِ السَّفينَةِ مُنْذِرًا بالشُّؤْمِ.





وَجَدَ سْتارْبَك ذاتَ صَباحٍ قُبْطانَنا يَتَكِئُ على جانِبِ السَّفينَةِ ويُحَدِّقُ في أعْماقِ المُحيطِ. نَظَرَ إلَيْهِ فَرَأى دُموعًا في عَيْنَيْهِ. اِقْتَرَبَ منهُ فأَجْفَلَ وابْتَدَرَ قائِلًا: «سْتارْبَك!»

أجابَ سْتارْبَك: «نَعَمْ يا سَيِّدي!»

تَأَوَّهَ القُبْطانُ وقالَ بأَسًى: «آهٍ، يا سْتارْبَك! السَّماءُ الآنَ صافِيَةٌ، والنَّسيمُ عَليلٌ. قَبْلَ أرْبَعينَ سَنَةً عَرَفْتُ يَوْمًا كَهٰذا اليَوْمِ. كُنْتُ فَتًى في الثّامِنَةَ عَشْرَةَ من عُمْري، أَتَعَلَّمُ بحَماسَةٍ ولَهْفَةٍ أسْلوبَ قَذْفِ المِزْراقِ. أرْبعونَ سَنَةً، يا سْتارْبَك! أرْبَعونَ سَنَةً من صَيْدِ الحيتانِ والمَشَقّاتِ والمَخاطِرِ. أرْبَعونَ سَنَةً مِنَ العَواصِفِ، يا سْتارْبَك. فَكِّرْ في الحَياةِ الّتي عِشْتُها: وَحْدَةٌ، وعُبودِيَّةٌ للآخَرينَ. آهِ، إنَّ أهاب العَجوزَ أداةٌ، وها هو الآنَ يُطارِدُ حوتًا فَرْدًا مُطارَدَةً جُنونِيَّةً. أعِنْدي ما أَفْتَخِرُ بهِ؟ ساقٌ راحَتْ ـ هٰذا أنا، يا سْتارْبَك، عَجوزٌ مَجْنونٌ بساقٍ واحِدَةٍ. مَنْ يَأْمُرُني بالسَّيْرِ في هٰذِهِ الطَّريقِ؟ خَبِّرْني، يا سْتارْبك، خَبِّرْني!»

لٰكِنِ سْتارْبَك كانَ قَدِ ابْتَعَدَ، وقَدْ شَحَبَ وَجْهُهُ شُحوبَ الأَمْواتِ.

وعادَ أهاب يَقِفُ وَحيدًا، ويُحَدِّقُ في البَحْرِ. ثُمَّ أجْفَلَ ثانِيَةً عِنْدَما سَقَطَ عليه ظِلٌّ. اِلْتَفَتَ فوَجَدَ فَيْضَ اللهِ يَقِفُ إلى جِوارِهِ صامِتًا، ويَنْظُرُ إلَيْهِ نِظْرَةً نَفّاذَةً.

بادَرَهُ فَيْضُ اللهِ قائِلًا: «حانَتِ السّاعَةُ، أيُّها العَجوزُ!»

وجاءَتْ صَيْحَةٌ من أعْلى الصّاري تَقولُ: «إنَّهُ هُناكَ! إنَّهُ هُناكَ يَنْفُثُ! إنَّهُ موبي دِك!»

نَفَضَ أهاب عنهُ شُجونَ الذِّكْرَياتِ في الحالِ. وصاحَ آمِرًا: «أعِدّوا الزَّوارِقَ، وانْطَلِقوا بها».

أسْرَعَ البَحّارَةُ إلى زَوارِقِهِمْ يُلَبّونَ أمْرَ القُبْطانِ. كانوا يُحِسّونَ بِهَواجِسَ غَريبَةٍ، لٰكنّهم بَحّارَةٌ يُطيعونَ الأوامِرَ لا الهَواجِسَ.

اِنْدَفَعَتْ أَرْبَعَةُ زَوارِقَ صَغيرَةٍ، مَرَّةً أُخْرى، تَتَحدَّى المُحيطَ، في مُقَدِّمَتِها زَوْرَقُ القُبْطانِ الّذي كانَ قد أَصْلَحَ. كانَ المُحيطُ هادِئًا، وكأنَّهُ مُتَشَوِّقٌ للتَّفَرُّجِ على الصِّراعِ الّذي كانَ يُوْشِكُ أَنْ يَبْدَأَ.

كُلُّنا رَأَيْنا موبي دِك. رَأَيْناهُ يَرْفَعُ ذَيْلَهُ الهائِلَ في الهَواءِ ويَغْطِسُ عَميقًا تَحْتَ الأَمْواجِ.



تَوَقَّفَتِ الزَّوارِقُ الأَرْبَعَةُ انْتِظارًا لِبُروزِ الحوتِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ. وَقَفَ أهاب في مُقَدِّمَةِ زَوْرَقِهِ الطَّويلِ، وقَدْ أَمْسَكَ بِمِزْراقِهِ، وسَدَّدَهُ، وراحَ يُحَدِّقُ في أَعْماقِ المُحيطِ. وبَيْنما كانَ يَقِفُ هُناكَ رَأى بُقْعَةً بَيْضاءَ صَغيرَةً أَخَذَتْ تَكْبُرُ أمامَهُ. لقد كانَ ذٰلِكَ موبي دِك آتِيًا من تَحْتِ الزَّوْرَقِ بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ. وفي لَحَظاتٍ أَصْبَحَتِ البُقْعَةُ مِنَ الضَّخامَةِ بِحَيْثُ مَيَّزَ أهاب الأَسْنانَ البَيْضاءَ الحادَّةَ للحوتِ الفاغِرِ الفَمِ.

وجَّهَ أهاب أَمْرًا جافًّا بالاسْتِدارَةِ بالزَّوْرَقِ، ثُمَّ بادَلَ بَيْنَ مَكانِهِ ومَكانِ فَيْضِ اللهِ الّذي كانَ يَجْلِسُ في مُؤَخَّرَةِ الزَّوْرَقِ ويُوَجِّهُهُ.

في ذٰلِكَ الوَقْتِ قامَ موبي دِك بِإِحْدى حِيَلِهِ الخَبيثَةِ الّتي اشْتُهِرَ بها. فلقد انْحَرَفَ فَجْأَةً تَحْتَ الماءِ، وَشَقَّ سَطْحَ الماءِ نِصْفَ مُنْقَلِبٍ على ظَهْرِهِ، كما يَفْعَلُ القِرْشُ عِنْدما يَكونُ على وشْكِ الهُجومِ. وأَخَذَ الزَّوْرَقَ بَيْنَ فَكَّيْهِ الهائِلَيْنِ، وهْوَ لا يَزالُ يَحْفَظُ الجُزْءَ الأَكْبَرَ من جَسَدِهِ تَحْتَ الماءِ، بِمَنْأًى عن طَعَناتِ المَزاريقِ.

اِشْتَعَلَ أهاب غَيْظًا، إذْ رَأى الفَريسَةَ في مُتناوَلِ يَدِهِ ولٰكِنْ لا يَقْدِرُ على النَّيْلِ منها. فقامَ بِمُحاوَلَةٍ يائِسَةٍ لِتَخْليصِ زَوْرَقِهِ من بَيْنِ فَكَّيِ الحوتِ.

على أنّ الفَكَّيْنِ الهائِلَيْنِ أَطْبَقا على الزَّوْرَقِ فشَطَراهُ شَطْرَيْنِ. لٰكِنَّ أهاب ورِجالَهُ نَجَوا بِأُعْجوبَةٍ. ثُمَّ انْدَفَعَ الحوتُ يَسْبَحُ بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ لا يَقْدِرُ على مُجاراتِها زَوْرَقٌ.

عُدْنا إلى السَّفينَةِ مُنْهَكينَ . وتابَعْنا لَحاقَنا بالحوتِ، مُتَتَبِّعينَ نَفَثاتِهِ الّتي يُطْلِقُها بانْتِظامٍ.

حَتّى مَعَ هُبوطِ الظَّلامِ لَمْ يَتْرُكْ أهاب سَطْحَ السَّفينَةِ، وظَلَّ هُناكَ حَتّى بُزوغِ الفَجْرِ.

في اليَوْمِ التّالي رَأَيْنا موبي دِك ثانِيَةً. وزالَ عَنّا في لَحْظَةٍ الإرْهاقُ الّذي كُنّا نُعاني منهُ. ورُحْنا نُؤَكِّدُ بَعْضُنا لِبَعْضٍ قائِلينَ: «لَنْ يُفْلِتَ مِنّا هٰذِهِ المَرَّةَ. سَنَقْضي عَلَيْهِ.»

اِنْطَلَقَتْ زَوارِقُنا الثَّلاثَةُ المُتَبَقِّيَةُ في رِقابَةِ موبي دِك. وفَجْأَةً قَذَفَ الحوتُ نَفْسَهُ في الهَواءِ كاشِفًا عن حَجْمِهِ الهائِلِ. وأَحْدَثَ ارْتِدادُهُ إلى الماءِ صَوْتًا يُصِمُّ الآذانَ أَشْبَهَ ما يَكونُ بصَوْتِ مِدْفَعٍ كَبيرٍ.

وبَيْنَما نَحْنُ نَتَقَدَّمُ، اسْتَدارَ موبي دِك اسْتِدارَةً سَريعَةً واتَّجَهَ صَوْبَنا مُباشَرَةً. وأَخَذَتْ سُرْعَتُهُ تَتَزايَدُ، فَسَدَّدْنا مَزاريقَنا وقَذَفْناهُ بها، لٰكِنْ بلا طائِلٍ. فَتَحَ الحوتُ فَمَهُ وهاجَمَنا بشَراسَةٍ، فانْقَلَبَ زَوْرَقا السَّيِّدَيْنِ فْلاش وسْطَب، وانْقَذَفَ بَحّارَتُهما ومُعَدّاتُهما في البَحْرِ. ولَمْ يَبْقَ سَليمًا إلّا زَوْرَقُ سْتارْبَك، وكانَ يَقودُهُ آنَذاكَ أهاب.

غَطَسَ موبي دِك ثانِيَةً، ثُمّ بَرَزَ من تَحْتِنا تَمامًا وقَذَفَ بنا فطِرْنا عالِيًا في الهَواءِ وسَقَطْنا في الماءِ سُقوطًا مُريعًا.

كانَتْ سَفينَتُنا قَريبَةً، وبإمْرَةِ سْتارْبَك. فالتَقَطَتْنا، ونَجَوْنا بأُعْجوبَةٍ هٰذِهِ المَرَّةَ أَيْضًا.

صاحَ أهاب آمِرًا من فَوْرِهِ: «أَحْصوا الرِّجالَ! أَيْنَ فَيْضُ اللهِ؟ أَمَفْقودٌ هو؟ يا إلٰهي، غَيْرُ صَحيحٍ!»



لٰكِنَّهُ كانَ صَحيحًا؛ لَقَدِ اخْتَفى فَيْضُ اللهِ.

عِنْدَئِذٍ تَكَلَّمَ سْطَب، فقالَ: «رَأَيْتُهُ يَعْلَقُ في حَبْلِ مِزْراقٍ ويَغْرَقُ.»

صاحَ أهاب: «عَجِّلوا! إلَيَّ بمَزيدٍ مِنَ المَزاريقِ. سأَقْتُلُ هٰذا الحوتَ الآنَ!»

هَتَفَ سْتارْبَك: «لِيَرْحَمْنا اللهُ! لن تَقْتُلَهُ أَبَدًا. أَتَوَسَّلُ إلَيْكَ، كَفى! هٰذا جُنونٌ، أَيْنَ منهُ جُنونُ الشَّيْطانِ؟ أَنُواصِلُ مُطارَدَتَنا لِهٰذا الوَحْشِ القاتِلِ إلى أنْ يَجُرَّنا جَميعَنا إلى قاعِ المُحيطِ؟»

أَجابَ أهاب بصَوْتٍ خَفيضٍ: «إنّهُ قَدَرُنا. ولن يَقْوى أَحَدٌ على أنْ يُبَدِّلَ في ما قُدِّرَ لهُ. لقد عَرَفَ فَيْضُ اللهِ مَصيرَهُ، ورَضِيَ به. وها هو الآنَ قد ماتَ. وأنا لن أَهْرُبَ من قَدَري.»

ثُمّ قالَ مُخاطِبًا نَفْسَهُ: «قالَ فَيْضُ اللهِ إنّهُ سَيَموتُ قَبْلي، لٰكِنّي أَعودُ فأَراهُ. أَذٰلِكَ مُمْكِنٌ؟»



أَصْدَرَ أهاب أوامِرَهُ فأطَعْنا. أَقَمْنا اللَّيْلَ كُلَّهُ نَعْمَلُ بِجِدٍّ. اِسْتَرْجَعْنا زَوارِقَنا مِنَ البَحْرِ وأَصْلَحْناها، وصَنَعْنا مَزاريقَ جَديدَةً، وأَعْدَدْنا أَنْفُسَنا لليَوْمِ التّالي - للجَوْلَةِ الثّالِثَةِ مَعَ موبي دِك.

كنّا على يَقينٍ أنَّ يَوْمَنا الآتي ذاك هو يَوْمٌ مَشْهودٌ، فلم تُبارِحْنا الهَواجِسُ لَحْظَةً واحِدَةً.

طَلَعَ النَّهارُ عَلَيْنا هادِئًا صافِيًا هُدوءَ وصَفاءَ أَوَّلِ اليَوْمَيْنِ السابِقَيْنِ. وارْتَفَعَتِ الصَّيْحَةُ عَيْنُها من أعْلى الصّاري، والتَفَتَ الجَميعُ إلى الجِهَةِ الّتي امْتَدَّتْ إلَيْها ذِراعُ الرَّقيبِ. أُنْزِلَتِ الزَّوارِقُ، وانْتَظَرْنا، مِثْلَما انْتَظَرْنا في السّابِقِ، بُروزَ الحوتِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ.

لَمْ نَنْتَظِرْ طَويلًا، وعِنْدَما بَرَزَ موبي دِك رَأَيْناهُ مُغَطًّى بِمَزاريقَ وحِبالٍ مُتَشابِكَةٍ. اِنْقَضَّ عَلَيْنا، وقَدْ هَيَّجَهُ الأَلَمُ، فأَغْرَقَ اثْنَيْنِ من زَوارِقِنا الثَّلاثَةِ في الحالِ.

عِنْدَئِذٍ، وبَيْنَما كانَ موبي دِك مُنْدَفِعًا قَريبًا من زَوْرَقِنا، وهو الوحيدُ الّذي كانَ لا يَزالُ طافِيًا فَوْقَ الماءِ، ارْتَفَعَتْ من بَيْنِ الصَّخَبِ والاضْطِرابِ صَرْخَةٌ مُريعَةٌ. فقَدْ رَأَيْنا كُلُّنا بِأُمِّ العَيْنِ جَسَدَ فَيْضِ اللهِ عالِقًا بَيْنَ الحِبالِ، مُمَزَّقًا ومُلْتَصِقًا بخاصِرَةِ الحوتِ. وبَدَتْ لَنا عَيْنا الحوتِ الصَّغيرتانِ الشِّرّيرَتانِ عالِقَتَيْنِ في قُبْطانِنا أهاب.

هَتَفَ أهاب بصَوْتٍ خَفيض: «نَعَمْ، يا فَيْضَ اللهِ! ها أنا أَراكَ ثانِيَةً! هٰذا هو إذًا النَّعْشُ الّذي لَمْ تَصْنَعْهُ يَدُ إنْسانٍ!»

صَرَخَ سْتارْبَك مُتَوَسِّلًا: «يا أهاب، لقَدِ اسْتَدارَ موبي دِك وارْتَدَّ عَنّا. أُتْرُكْهُ! إنَّهُ لا يَسْعى إلى مُقاتَلَتِكَ؛ أَنْتَ الّذي تُطارِدُهُ هٰذِهِ المُطارَدَةَ الجُنونِيَّةَ.»

لٰكِنْ أهاب أَمَرَ أَنْ يَنْقَضَّ زَوْرَقُنا ثانِيَةً على الحوتِ، ورَفَعَ مِزْراقَهُ لاعِنًا وقَذَفَ به بِكُلِّ ما أوتِيَ من عَزْمٍ.



ارْتَدَّ موبي دِك عَنِ الزَّوْرَقِ الوَحيدِ المُتَبَقّي والّذي كانَ الآنَ بقِيادَةِ أهاب، واتَّجَهَ مُباشَرَةً إلى سَفينَتِنا. لٰكِنَّهُ في ارْتِدادِهِ ضَرَبَ الماءَ بذَيْلِهِ ضَرْبَةً هائِلَةً، رَفَعَتْ زَوْرَقَنا عالِيًا فَوْقَ الأَمْواجِ فانقَلَبْنا كُلُّنا فيهِ، بَعْضُنا فَوْقَ بَعْضٍ وامْتَلأَ ماءً.

أدْرَكَ سْتارْبَك في الحالِ ما يَنْويهِ الحوتُ، فصاحَ: «الحوتَ! اسْتَديروا بالسَّفينَةِ. فَلْنُواجِهْهُ بمُقَدِّمَتِها. أسْرِعوا، قَبْلَ فَواتِ الأوانِ!»

انْدَفَعَ الرِّجالُ انْدِفاعًا جُنونِيًّا يُريدونَ تَحْويلَ اتِّجاهِ السَّفينَةِ، وقد أدْرَكوا أنَّ تلك لَحْظَةٌ تَفْصِلُ بَيْنَ المَوْتِ والحَياةِ.

لٰكِنَّ موبي دِك كانَ قَدِ انْقَضَّ على السَّفينَةِ بِسُرْعَةٍ لا يُجاريها إنْسانٌ، وضَرَبَ جانِبَها فحَطَّمَها تَحْطيمًا.

صاحَ أهاب وهو مُتَعَلِّقٌ بزَوْرَقِهِ الغارِقِ: «تَحَقَّقَتِ النُّبوءَةُ! السَّفينَةُ هي النَّعْشُ الثّاني، فإنَّها مَصْنوعَةٌ من خَشَبِ بِلادي.»

ارْتَدَّ موبي دِك عِنْدَئِذٍ إلى زَوْرَقِنا الّذي كانَ على الرَّغْمِ من شِبْهِ امْتِلائِهِ ماءً لا يَزالُ طافِيًا. أرْسَلَ أهاب مِزْراقَهُ في جَسَدِ عَدُوِّهِ، لٰكِنَّ حَبْلَ المِزْراقِ عَلِقَ بالزَّوْرَقِ. فانْحَنى يُريدُ تَخْليصَهُ فزَلَّتْ قَدَمُهُ والْتَفَّ الحَبْلُ حَوْلَ عُنُقِهِ. واخْتَفى أهاب حَتّى قَبْلَ أنْ نَعِيَ ما حَدَثَ.

وهٰكَذا ارْتَبَطَ أهاب وفَيْضُ اللهِ في المَوْتِ ارْتِباطَهُما في الحَياةِ، ولَزِما عَدُوَّهُما إلى الأبَدِ.

عِنْدَما الْتَفَتْنا صَوْبَ سَفينَتِنا بَدَرَتْ مِنّا صَيْحَةٌ: «السَّفينَةُ! السَّفينَةُ! أيْنَ سَفينَتُنا؟»

لَمْ يَكُنْ يُرى مِنَ السَّفينَةِ إلّا صاريها مُصَوَّبًا إلى السَّماءِ. وتَوَلَّدَ مَعَ انْحِدارِ السَّفينَةِ إلى الأعْماقِ قُوَّةُ جَذْبٍ هَدَّدَتْ بابْتِلاعِ زَوْرَقِنا المُمْتَلِئِ ماءً.

قَفَزْنا كُلُّنا مِنَ الزَّوْرَقِ للنَّجاةِ بِحَياتِنا لٰكِنْ قَبْلَ أنْ أقْفِزَ رَأيْتُ طاشْطَغو فَوْقَ صاري السَّفينَةِ بمُحاذاةِ العَلَمِ، وقَدْ بَدا جامِدًا لايُبْدي حَراكًا وكانَ جَسَدُهُ المُكَفَّنُ بعَلَمِ أهاب آخِرَ ما ابْتَلَعَتْهُ الأمْواجُ المُدَوِّمَةُ.



تِلْكَ هي خاتِمَةُ قِصَّتي. لقد كُنْتُ النّاجِيَ الوَحيدَ من غَضَبِ البَحْرِ. فَقَدْ أَفْلَتَتْ طافِيَةُ النَّجاةِ، الّتي أُريدَ لَها أَصْلًا أَنْ تَكونَ نَعْشًا لصَديقي، مِنَ السَّفينَةِ في أَثْناءِ غَرَقِها، وطَفَتْ حَيْثُ كُنْتُ أَسْبَحُ.

بَقيتُ نَهاري ولَيْلَتي مُتَعَلِّقًا تَعَلُّقًا مَريرًا بذٰلِكَ الكَفَنِ، ومن حَوْلي تَدورُ أَسْماكُ القِرْشِ. ولٰكِنْ شاءَتْ إرادَةُ اللهِ أَلّا تُهاجِمَني تِلْكَ الأَسْماكُ.

في اليَوْمِ التّالي رَأَيْتُ في الأُفُقِ شِراعًا. لقد كانَتْ سَفينَةَ نانْتُكِت لا تَزالُ تَبْحَثُ عَنِ المَفْقودينَ من أَوْلادِها. لَمْ تَجِدْهُمْ، لٰكِنّها وَجَدَتْ مَفْقودًا آخَرَ.



هيرمَنْ مَلْفِل



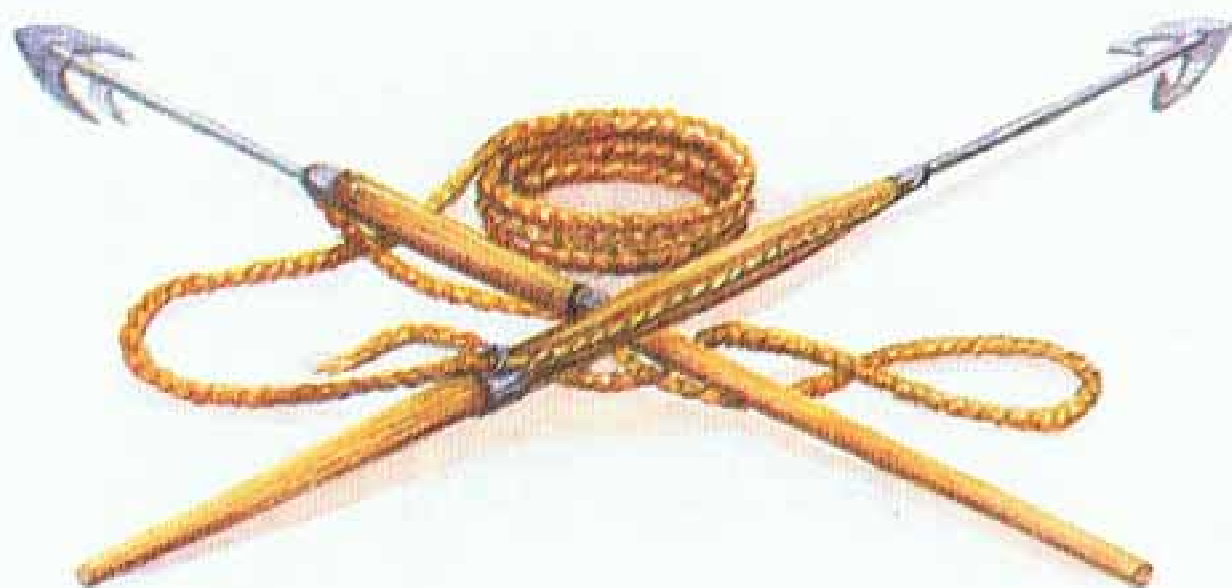
وُلِدَ هيرمَنْ مَلْفِل في الأَوَّلِ مِنْ آبٍ (أغسطس) سَنَةَ ١٨١٩ في مَدينَةِ نيويورك، وكانَ والِدُهُ تاجِرًا ووالِدَتُهُ ابْنَةَ عائِلَةٍ ثَرِيَّةٍ مِنْ أَصْلٍ هولَنْدِيٍّ.

كانَ هيرمَن الثَّالِثَ بَيْنَ أَبْناءِ العائِلَةِ الثَّمانِيَةِ؛ وقَدْ وَجَدَ نَفْسَهُ سَنَةَ ١٨٣٢، وهو في الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ، مُضْطَرًّا لِلعَمَلِ لِلمُساهَمَةِ في إعالَةِ الأُسْرَةِ، بَعْدَ أَنْ تُوُفِّيَ والِدُهُ. وقَدْ دَفَعَهُ حُبُّهُ لِلتَّنَقُّلِ إلى العَمَلِ كَبَحَّارٍ على مَتْنِ سَفينَةٍ تِجارِيَّةٍ فَأَبْحَرَ إلى «ليفربول» في إنكلترا، ثُمَّ عادَ إلى أَميركا حَيْثُ مارَسَ التَّعْليمَ في إحْدى المَدارِسِ فَتْرَةً وَجيزَةً. ثُمَّ الْتَحَقَ بِعَمٍّ لَهُ يَقومُ بِرِحلاتٍ اسْتِكْشافِيَّةٍ في نَهرِ المِسيسيّي. قَرَّرَ، بَعْدَ ذٰلِكَ، التَّحَوُّلَ إلى صَيْدِ الحيتانِ، فَانْضَمَّ، عامَ ١٨٤١، إلى سَفينَةِ صَيْدِ الحيتانِ «أكوشنِت». اِتَّجَهَتِ السَّفينَةُ جَنوبًا ودارَتْ حَوْلَ رَأْسِ «هورن» وأَخَذَت تَجوبُ جُزُرَ جَنوبِ المُحيطِ الهادي. تَرَكَ مَلْفِل السَّفينَةَ في جُزُرِ «مَرْكيز» وأَمْضَى شَهْرًا وَحيدًا بَيْنَ مُتوحِّشي وادي «تايْبي»، ثُمَّ انْضَمَّ إلى سَفينَةٍ أُستراليَّةٍ لِصَيْدِ الحيتان تَوَجَّهَتْ إلى «تاهيتي». قامَ مَلْفِل مَعَ عَشَرَةٍ مِنَ البَحَّارَةِ بِمُحاوَلَةِ تَمَرُّدٍ قادَتْهُمْ إلى السِّجْنِ. وقَدْ تَمَكَّنَ مِنَ الفِرارِ والوُصولِ إلى جَزيرَةِ «موريا» القَريبَةِ. ما لَبِثَ مَلْفِل أَنْ عَمِلَ في سَفينَةٍ أَميركِيَّةٍ لِصَيْدِ الحيتانِ وَصَلَتْ بِهِ إلى «هاواي» حَيْثُ تَرَكَها وانْخَرَطَ في سِلْكِ البَحْرِيَّةِ الأَميركِيَّةِ. عادَ إلى وَطَنِهِ سَنَةَ ١٨٤٤، وكانَ آنذاكَ في الخامِسَةِ والعِشْرينَ.

كانَ مَلْفِل يَجلِسُ إلى أُمِّهِ وإخوَتِهِ ويُخبِرُهُمْ قِصَصَ مُغامَراتِهِ في البَحرِ ، فكانَ ذٰلِكَ مُنْطَلَقًا لِلقِيامِ بِالكِتابَةِ ، فَظَهَرَتْ رِوايَتاهُ «تايپي» (Typee) ١٨٤٦ ، و«أومو» (Omoo) ١٨٤٧ ، وكانَتا سَبَبًا لِشُهْرَتِهِ وذُيوعِ اسْمِهِ. تَزَوَّجَ مَلْفِل سَنَةَ ١٨٤٧ مِنْ إليزابِث شو ابْنَةِ رَئيسِ المَحْكَمَةِ العُلْيا في وِلايَةِ «ماساتشوسِتْس» واسْتَقَرَّ في نيويورك.

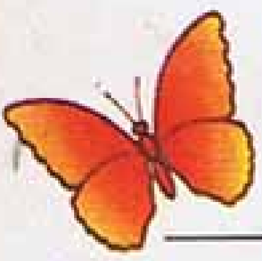
لم يَشْهَدْ إنْتاجُ مَلْفِل الأَدَبِيُّ اسْتِمْرارَ النَّجاحِ إذْ أَلَّفَ في العامَيْنِ ١٨٤٩ و١٨٥٠ ثَلاثَ رِواياتٍ لَمْ تَلْقَ اسْتِحْسانًا كَبيرًا (Mardi - Redburn - White Jacket). اِقْتَرَضَ مَبْلَغًا مِنَ المالِ مِنْ حَميهِ واشْتَرى بِهِ مَزْرَعَةً أَقامَ فيها مُنْكَبًّا عَلى الكِتابَةِ ، فَأَخْرَجَ سَنَةَ ١٨٥١ رِوايَةَ «**موبي دِك**» (Moby Dick) الّتي اسْتَوْحاها مِنْ تَجْرِبَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ عَلى مَتْنِ السَّفينَةِ «أَكوشنِت». ولَمْ تُصِبْ هٰذِهِ الرِّوايَةُ أَيْضًا شُهْرَةً عِنْدَ صُدورِها.

مَرَّتِ السِّنونُ بَعْدَ ذٰلِكَ عَلى مَلْفِل ثَقيلَةَ الوَطْأَةِ ، إذْ كانَ يُعاني مِنْ فَشَلِهِ الأَدَبِيِّ وصِحَّتِهِ العَليلَةِ ووَضْعِهِ المالِيِّ الحَرِجِ ، إلى أَنْ تُوُفِّيَ سَنَةَ ١٨٩١. فَلَمْ يَشْهَدِ النَّجاحَ الفائِقَ الّذي أَحْرَزَتْهُ ، بَعْدَ وَفاتِهِ ، رِوايَةُ «موبي دِك» ، ولا المكانَةَ الرَّفيعَةَ الّتي احْتَلَّتْها رِوايَةُ «**البَحّار**» (Billy Budd) الّتي خَلَّفَها وراءَهُ قُصاصاتٍ مُتَناثِرَةً جُمِعَتْ ونُشِرَتْ سَنَةَ ١٩٢٤.



كتب الفراشة - القِصص العالميّة

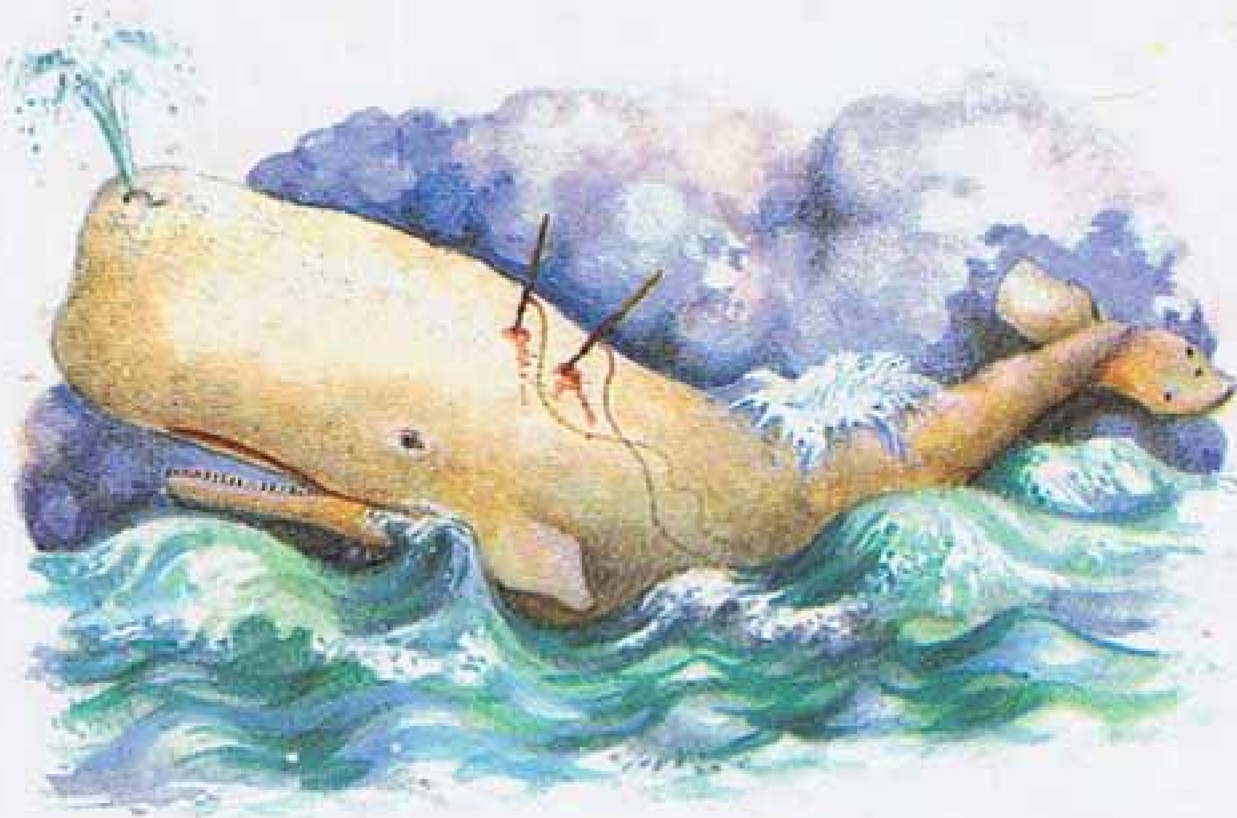
١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليڤَرتْويسْت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْڤيل
٨ - قِصَّة مَدينَتَين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير



كتب الفراشة

القصص العالميّة ٤. موبي دِك

اِخْتارَت **مَكتبة لبنان ناشرون** أَرْوَعَ القِصص العالَمِيّة ، ونَقَلَتها إلى العَربيَّة مُبسَّطة ، مُراعِيَة الأَمانَة في النَّقل والمُحافَظة على جزالة الأُسْلوب العَربيّ وبَلاغته ، مَع تَشكيل كامِل وضَبْط دَقيق . وقد أَشْرَفَ عَلى هٰذه السِّلسلة خُبَراء دائِرَتي النَّشْر والمَعاجم في مكتبة لبنان ناشرون حتّى نُوَفِّر للقارئ العربيّ إنْتاجًا فكريًّا مُتفوِّقًا مَظْهرًا ومَضمونًا .



مَكتبة لبنان ناشِرون

